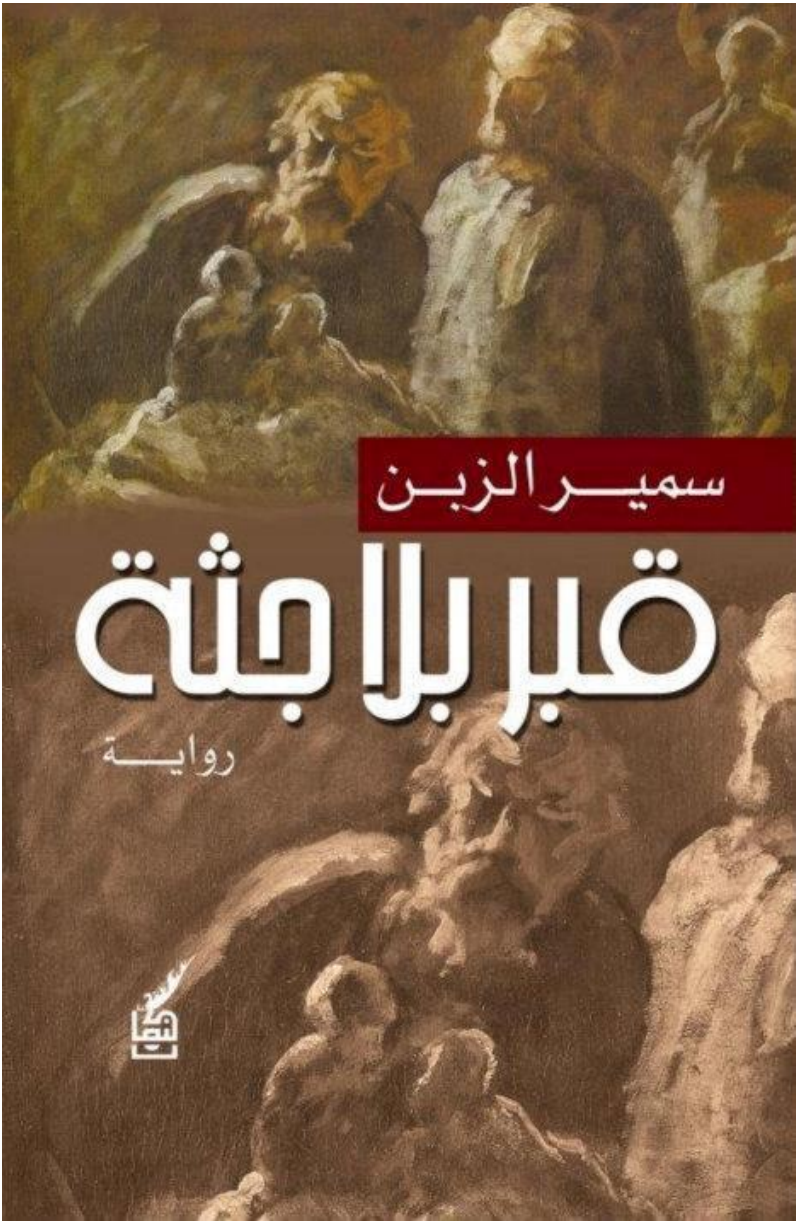
سميـــر الزيـــن
قبر بلا جثة
روايــــة

قبر بلا جثة

قبر بلا جثة »رواية«

تأليف: سمير الزبن

الناشر: دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

جميع الحقوق محفوظة

دمشق – ص.ب ٤٤٣ تلفاكس: ٢١٣٤٤٣٣ (١١ - ٩٦٣ +)

E-mail: said.b@scs-net.org

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩ / عدد النسخ ١٠٠٠

إخراج: لبنى حمد

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com
http://www.furat.com
http://www.neelwafurat.com

سمير الزين

قبر بلا جثة

رواية

الإهداء

إلى ولدي

أدونيس وإياس

الأغلى عندي في هذا العالم

١

«حَسَدْتك، وتمنيتْ تكون الجنازة جنازتي، والملصقْ ملصقي، كانتْ جنازة حلوة كتير، حسيتْ بالفخر لأنك صديقي الشهيد». «تمنيت أموت مُوتَّك، ويزفوني زي ما زفوك، جنازتك كانت عرس بيجنِّن». «يا حرامي سرقت جنازتي مني، كان لازم تكون الجنازة الحلوة جنازتي، مو جنازتك، وكان لازم صورتي تكون على الملصق مو صورتك، ما كان لازم يوم العملية تقولْ لي، تراجع»، «تمنيت أن....»، «رغبت في....»، «حسدتك.....»، «بكيت على حالي.....».

تذكر الكثير والكثير مما قيل له من أصدقائه ورفاقه ومعارفه بعد عودته مُحرَّراً من الأسر بعملية تبادل أسرى بعد أكثر من أربع سنوات قضاها في السجون الإسرائيلية. شريط سينمائي يمر أمام عينيه، شريط يعود إلى عشرين سنة خلت، لكنه ظل طازجاً، يتذكر الشريط كله وكأنه حدث بالأمس. لقد داوم منذ خروجه من الأسر على زيارة قبره كل عيد، زيارتان في العام ليطمئن على المكان الذي سيكون إليه مآله النهائي، قبره الذي استحقه عن جدارة. تداعى الشريط إلى ذاكرته، عندما انتبه إلى أن تاريخ استشهاده قد مر عليه خمسة وعشرون عاماً وبضعة أيام، وهذا يعني أنه يزور قبره للمرة العشرين، ولم ينقطع عنه ولا مرة واحدة! لقد استشهد كما تقول شاهدة القبر في ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٠.

«وقت طويل مر على موتي» قال لنفسه، وما زال شريط ذكرى الاحتفال بعودته طازجاً، والكلمات التي قالوها له بفخر ما زالت طازجة وترن في أذنيه وكأنها بنت ساعتها. تحدثوا عن جنازته المهيبة بطريقة مشوقه ومدهشة، لدرجة تمنى أن يكون حضرها بنفسه، ولكثرة ما سمع عنها تخيلها كما هي، وكأنه كان مشتركاً فيها. لقد روى

الكثيرون له جنازته ومن كل المواقع تقريباً، فكل واحد منهم شاهدها من موقعه، ورواها للشهيد الحي بفخر عندما توفرت له الفرصة، ليقولوا له إنهم كانوا شهوداً على عرسه. رددوا على مسامعه الهتافات التي هتفتها الأصوات القوية بفخر واعتزاز ودموع في ذلك اليوم. أصوات تشقُّ السماء هادرة بأعلى ما تملك من قوة: «لا اله إلا الله، والشهيد حبيب الله»، «يا جنة افتحي أبوابك، هذا سعيد من زوارك»، «بالروح بالدم نفديك يا فلسطين»... تخيّل سعيد مئات الأعلام الفلسطينية رباعية اللون ترفرف بين آلاف من المشيعين الفخورين بهذا الشهيد الذي بقيت جثته على أرض الوطن، ونالت شرف البقاء هناك، الوطن الذي يتمنى الجميع زيارته حتى لو موتى. تخيل النعش الفارغ الذي يتطاير فوق الأكف الحريصة عليه، وكأن الشهيد في النعش فعلاً! نعش يجلِّلُه العلم الفلسطيني اللامع، تخيله رايةً خفَّاقةً كما وصفوه له أكثر منه نعشاً. وتخيّل عيون الأطفال المتسائلة في شوارع المخيم عما يجري، وعن النساء اللواتي أطلين بعيون تطفح بالحزن من أبواب المنازل ونوافذها، لتشاهدن الجنازة وتنظرن إلى صورة الشهيد على الملصق التي انتشرت على جدران المخيم إلى جانب غيرها من صور الشهداء الذين سبقوه. كانت عيون النساء حزينة على الشاب الذي فقد حياته مبكراً من أجل وطن سليب. وقد غطيّن جزءاً من وجوههن بمناديلهن، لتبقى عيونهن الدامعة الأكثر تعبيراً عن الحزن على الشاب، وعلى الرحيل الذي دام طويلاً في مخيمات البؤس في الشتات بعيداً عن فلسطين. تذكر كذلك أمه المفجوعة بولدها الثاني، شهيد آخر في عائلة لا يكاد أولادها يقتربون من شبابهم حتى يخطفهم الموت من أجل الوطن. لم تُخْفِ حزنها، بل بكت بكل قوتها. لقد صرخت من قهر لا يمكن احتماله على ولدين بعمر الزهور خطفهما الموت من أم كانت تربي أبناءها بالغالي والنفيس، وكانت تكره أن يأخذهم الموت حتى من أجل وطن سليب! إن استشهاد ولدها الثاني ذهب بعقلها تماماً، فكانت تغرق دائماً بالصمت والشرود غير مصدقة ما يجري لها. لقد قضى ولدها البكر أحمد في الاجتياح الإسرائيلي للجنوب اللبناني في العام ١٩٧٨، وأتوا لها بجثمانه مضرجاً بدمه، مرغت وجهها بجثته وشمت رائحته، أرادتها ذكرى من بكرها الذي غادرها قبل أن تفرح به. والولد الثاني يقيمون له جنازة بلا جثمان، لا أحد غيرها كان يعرف أي نار

تكويها. وكانت تقول بحرقة لاذعة ودموعها تسيل دون إرادتها: «لو شُفْتْ جثته، برتاح». لكن الجنازة كانت رمزية، وجثمان الشهيد بقي هناك حيث سقط، على أرض تمنى الجميع أن يدفنوا فيها. لقد حسدوه على موته هناك أكثر ما حسدوه من أجل نيله الشهادة. نال الجنة على الأرض، ومن نالها هناك في فلسطين، لا يهم بعد ذلك إن نالها في السماء أو لا. تذكر والده الحزين، والذي لم يستطع إخفاء حزنه، رغم أن الجميع وقف إلى جانبه وحياه على كونه أبا الشهداء. لم يعلق سوى بكلمات قليلة: «قَدَرْ ومكتوب» و«مشيئة الله»، ولكنه بينه وبين نفسه كان يقول: «أنا بِدّي أكون والد أحياء لا شهداء، شو بعمل بالموتى حتى لو كانوا شهداء؟!» كما أَسَرَّ بعد ذلك لسعيد. لقد ضربت الفجيعة البيت، ولم تكفَّ سلمى أخته التي تصغره بسنتين عن البكاء طوال أشهر بعد استشهاده، فقد تعلقت به طوال الوقت، ولو لم يكن أخوها لعشقته وحبسته في قلبها ومنعته من الذهاب إلى أي مكان، حتى إلى فلسطين. لم يؤذها يوماً ولم يضربها، بل كانت الوحيدة القادرة على التأثير فيه منذ كانوا أطفالاً صغاراً، لم يكن يحتمل حزنها ولا زعلها، كان إذا بكت يجن جنونه، وإذا ما عرف أنها بكت بسبب ولد آخر أو بنت أخرى من أولاد الجيران، فإنه لم يكن يهدأ حتى يضربهم. كان ولداً شقياً، لكنه مع سلمى كان ولداً وديعاً كالحمل. الولدان الأصغران كانا فرحين بعرس أخيهم الشهيد الذاهب إلى الجنة محمولاً على أكف الملائكة، لم يدركوا معنى غيابه، فقد كان مروان الكبير يبلغ عشر سنوات ومحمد الصغير ثمانية سنوات. الفجيعة الكبرى كما روت سلمى لسعيد بعد خروجه من الأسر، أصابت وعد حبيبة الشهيد، لأن استشهاده قهرها تماماً، كان حلمها ووعدها بالمستقبل الذي سيبنيانه سوية، ولكنه خذلها. لم تكن تستطيع البكاء علناً، كانت تمسك نفسها عن البكاء أمام أخوتها وأبيها، لكنها كانت طوال الوقت تذرف الدموع، حتى في المدرسة وأثناء الدروس، على الحبيب الخائن الذي «اختار أسهل الحلول لمشاكلهم، وذهب إلى موته» كما كانت تقول لسلمى بقهر لم تعرف مثله يوماً. عندما كانت وعد تلتقي بسلمى، كان هناك دائماً حفل بكاء على سعيد الذي غاب في الوقت غير المناسب. كانت وعد تقول: «ما رح أسامحه طول حياتي، ما كان لازم يتركني لحالي» كل مرة كانت تقول هذه الكلمات، بعدها تنفجر باكية، تعانقها سلمى وتبكيان معاً.

يقف سعيد أمام قبره في صباح أول أيام العيد مستغرباً من نفسه، إنه يتذكر أوقاتاً وأحداثاً لم يكن موجوداً فيها، أحداث حصلت وهو في أسره، لم يكن شاهداً عليها، لكنه يتذكرها وكأنه شارك فيها. يتذكرها من خلال الكثير الذي قيل له بعد سنوات من الحدث نفسه. لقد بقيّ استشهاده طازجاً زمناً طويلاً في قلوب المحيطين به وفي عقولهم، وعندما رووا له ما جرى بعد أربع سنوات، كانوا يروون ذلك وكأنهم عائدون للتو من جنازته. كان يتأمل قبره الذي أخذ يتآكل بفعل تعاقب فصول المطر والشمس خلال ربع قرن مرَّ على بناء هذا القبر، حتى بهتت ألوانه، كما بهتت ألوان كل القبور المجاورة أيضاً، والتي لم يعد أحداً يهتم بها، مثلما كان الاهتمام بقبور الشهداء عندما استشهد، وحتى قبل ذلك أيضاً، عندما كان الشهيد يستشهد بنيران الإسرائيليين، وليس بحادث سير أو جلطة قلبية أو مرض عضال كما هو سائد في ملصقات الشهداء في السنوات الأخيرة التي تلصق بخجل على جدران المخيم.

عاد سعيد من ذكرياته التي لم يكن موجوداً فيها، عندما شدَّ ولدٌ يده، كان في حوالي العاشرة من عمره، ومظهره في غاية البؤس. قال الولد برجاء: «أغسِل لَك القبر؟» نظر سعيد إلى الولد الذي يحمل بيد تنكة قديمة يستخدمها لجلب الماء لغسل القبور. كانت ثياب الطفل قذرة ومبللة بالماء، وشعره أشعث، ويداه متسختين، وقدماه حافيتين تجمعت عليهما الأوحال، يصلح نموذجاً لتصوير الطفولة البائسة. قال سعيد للولد: «اغسلني!» لم يفهم الولد ما قاله سعيد تماماً، ولكنه اعتبر كلام سعيد إشارة موافقة على أن يغسل له القبر، فاختفى كالبرق، ليعود بعد قليل يحمل تنكة ماء تتساقط المياه من جوانبها بفعل استعجاله وتزيد من بلل ثيابه. رش الماء على القبر وأخذ يفركه بيده بسرعة. جال سعيد ببصره على زوار المقبرة الذين يتناقصون عيداً بعد عيد، انتبه إلى أصوات الباعة تنادي على أنواع الخضار والفواكه، قادمة من سوق الخضار المجاور لسور المقبرة، تذكر أنه وعد زوجته هناء أن يأتيها بالفواكه من السوق صباحاً، ولم يخبرها كالعادة أنه سيذهب لزيارة قبره، رغم أنها كانت تعرف أنه سيقوم بهذه الزيارة مهما فعلت. تأمل الطفل المنهمك بغسل القبر بجدية مفتعلة، ناوله قطعة نقود، وقال له: «نَظِّفْ قبري منيح» توقف الولد عن غسيل القبر، نظر إلى سعيد ببله، فغر فمه مدهوشاً، أدار سعيد ظهره للولد وذهب باتجاه باب المقبرة،

ومن هناك إلى سوق الخضرة. عندما ابتعد سعيد مسافة كافية عن الولد الذي يغسل قبره، وقدّر الولد أن سعيد لن يسمعه. هز رأسه مستنكراً، وقال لنفسه بصوت عال: «رجّال مجنون!».

٢

بعد عودة سعيد من زيارة المقبرة كان التوتر يسود المنزل، فهو يعرف مسبقاً أن هناء تصبح في قمة عصبيتها في مثل هذا الوقت، إنها تعرف أنه في أكثر مكان تكره أن يكون فيه. لم يخفف من هذا التوتر أنه حمل لها كل طلباتها من السوق وزيادة، ولم ينس أياً منها، حتى لا يزداد الوضع سوءاً بينهما. فصباح كل عيد منذ تزوجا قبل خمسة عشر عاماً يتوتر المنزل بسبب هذه الزيارة المتكررة التي لم يتوقف عنها في أي عيد منذ خروجه من السجن، فهو يعتبرها طقساً مقدساً لا يمكن أن يتخلى عنه مهما كان السبب. يحتج بصوت عال: «شو المشكلة، كلهم مرتين بالسنة، وأنا ما بروح كل يوم؟» لم يكن احتجاج هناء لأنه يذهب إلى المقبرة، فليذهب إليها كما يشاء، ومتى أراد، وإنما كان احتجاجها وغضبها منه لأنه يذهب لزيارة قبره، فقد كانت تعتبر هذه الزيارة فألاً سيئاً، تخاف منه خوفاً حقيقياً، وتخاف أن يذهب سعيد ويختفي في قبره. إنه عنوان موته المعلن الذي لا تحبه، والذي يصرّ هو على تذكيرها به كل عيد، إنها هدية العيد الصباحية التي يقدمها لها. وهذه الهدية تنغص عليها العيد وتجعله كريهاً. لقد أصبحت تكره العيد بسبب هذه الزيارة الصباحية التي تُذكرها بأنها تزوجت من رجل ميت، له قبر معلن، ويصرّ هذا الرجل على زيارة قبره لاستفزازها وإخافتها، ولتذكيرها بأنه مجرد جثة لم تعرف طريقها إلى الموت. على مدى سنوات زواجهما لم يستطع أي منهما أن يزحزح الآخر عن قناعاته. بقيت الزيارة تسبب خلافاً متصاعداً في كل مرة، كانت تدافع بقوة عن موقفها وتقول غاضبة وهي تفتح عينيها إلى أقصاها: «إنتَ بدك تموِّتني، ضروري تذكرني كل مرة بموتك وتخوفني، خلصْ بيكفي، رح تجبْ لي الجلطة، ما في بقلبك رحمة» وكان يرد عليها: «بس أنا مو ميت» وتجيبه هي: «لو كنت ميت، ما خوفتني، بس كل ما رحت على المقبرة،

بترجع شبح، ولما بترجعْ بخافْ عليك، وبخاف منك. افهمْ عاد» لقد حاولت جاهدة عندما مات والده قبل سنوات، إقناعه بدفنه في قبره الفارغ تكريماً لوالده الذي أفنى حياته من أجلهم، لقد قالت بحق والده كلاماً مؤثراً لتجعله يوافق على اقتراحها، لكنه رفض بشدة. استفزه اقتراحها، لأنه اعتبرها تنصب له فخاً محرجاً للخلاص من قبره الشخصي. واعتبر اقتراحها انتهاكاً صارخاً للشيء الوحيد الذي يملكه وليس لأحد حق التدخل فيه، حتى هي، ليس لأنه لا يرغب في منح شرف تقديم قبره لوالده، على العكس، كان يمكن أن يقدمه عن طيب خاطر، وكان والده يستحق هذا القبر بجدارة، حتى لو لم يجد هو ذاته قبراً يدفن به. ولكن لم يكن هناك مشكلة في إيجاد قبر لوالده، واعتبر ذلك محاولة غير شريفة من هناء للخلاص من ذاك القبر الذي يخيفها، لأنه في حال دفن فيه والده، تصبح زيارة سعيد إلى قبر والده، وليس إلى قبره الشخصي. لم يتجرأ أحد غير هناء على اقتراح ذلك على سعيد، ولم يخطر على بال أحد، فلم يكن أحد مشغولاً بزيارة سعيد لقبره غيرها. ولكن هناء التي يشغلها قبر سعيد كل عيد، وعند وفاة أي شخص من عائلتها أو من عائلة سعيد، ما كان يمكنها أن تسكت على الرعب الذي يصيبها، وكل عيد كان قبر سعيد يصبح أمراً ملحاً عليها بقوة، ولا يعود هناك ما تفكر به سوى ذلك القبر اللعين.

عندما تعرفت عليه وأحبته، أحبت فيه تفاؤله ونظرته الوردية إلى المستقبل، ولم تتوقع حتى في كوابيسها أن يتحول سعيد إلى شخص كئيب، حتى أن ذلك لا يتناسب مع الاسم الذي يحمله. وقد اعتبرت هناء أن تحولات سعيد من شاب متفائل إلى شخص كئيب وسوداوي سببه قبر الشؤم اللعين الذي يزوره كل عيد ويعود منه شبحاً حقيقياً يخيفها وينغص عليها حياتها. حتى الضائقة المالية الدائمة التي يعيشونها وعدم قدرتهم على الخروج منها، والمصائب والمشاكل التي كانت تقع فيها العائلة، كانت هناء تُعيدها إلى لعنة القبر. لقد أخافها القبر قبل زواجها بسعيد وكانت صدمتها الأولى الكبيرة في علاقتها به. عندما كانا في بداية علاقتهما، قال لها سعيد: «عندي مفاجأة لك» لم تكن هناء تعرف قصته تماماً، كانت تعرف أنه أسر وأن أهله اعتقدوا أنه استشهد، وأنه تم تحريره من الأسر خلال عملية تبادل أسرى مع إسرائيل. ولكنها لم تكن تعرف تفاصيل أكثر من ذلك، ولم يكن هو قد قال لها بعد. كانت

تجهل قصه القبر تماماً، وهي أصلاً لم تكن تحب المقابر ولا تحب حديث الموت، كانت تكره المقابر وتخاف منها. لم يكن قد مضى وقت طويل على تعرفها على المخيم، وكانت زارته ثلاث مرات لا غير، عندما قادها سعيد في أزقة المخيم. جفلت هناء حين وصلا إلى باب مقبرة الشهداء وشاهدت لوحة المقبرة تعلن عن نفسها. وسألته بدهشة وخوف: «ليش جبتني لهون؟!» على عكس وجه هناء المصفر والخائف، كان وجه سعيد مرتاحاً ومشرقاً وفرحاً، حتى أنه لم ينتبه إلى تعبيرات هناء التي تغيرت، وخوفها الظاهر، ولا إلى تهدج صوتها الواضح، أجابها بهدوء شديد: «استتني شوية» التفتت هناء إلى سعيد قلقلة وخائفة وقالت بتعب شديد: «استتى شو؟! إن شاء الله بدنا نفوت عالمقبرة؟!» أجابها: «نعم» كان خوفها قد وصل أوجَه، ولم تكن قادرة لا على معرفة ما الذي يريده من زيارة المقبرة، ولا على تقدير ذلك، فما الذي يريده شخص مثل سعيد من المقبرة؟! كانت خائفة كما لم تخف من قبل، ليس لأن سعيد سيقوم بأي فعل يؤذيها، فهي تعرف أنه لا يمكن أن يؤذيها، بل كانت خائفة وحسب. كانت تسير مثل المسحورة عندما قطعا باب المقبرة، لتشاهد أمام عينيها القبور منتظمة الصفوف والتواريخ، ترتيبها حسب تاريخ الاستشهاد، كانت المقبرة ممتلئة بالقبور، فمنذ سنوات عديدة تم وقف الدفن فيها، وافتتحت مقبرة أخرى على الجانب الآخر من المخيم. لأنها مقبرة شهداء، جالت في رأس هناء كل الأفكار عن الموت وكل أشكال الاستشهاد التي سمعت عنها والتي يمكن تخيلها، دماء وأشلاء، دماء لشباب ورجال يستحقون الحياة لا الموت، صراخ، شتائم، دموع، قذائف، دخان أسود، عويل، صراخ، ألم، حشرجات.. الخ، لكل ما يمكن أن يخطر على البال من تصورات مأساوية. أخذت تقرأ شاهدات القبور سريعاً، وكانت تواريخ الاستشهاد تلفت انتباهها، فتقرأ: استشهد في العام ١٩٦٩ أثناء القصف الإسرائيلي لمعسكر الهامة... استشهد في العام ١٩٧٢ أثناء القصف الإسرائيلي لمستوصف صور... استشهد في العام ١٩٧٨ أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان... عند هذا القبر الذي قرأت شاهدته، أوقفها سعيد وقال لها: «هذا قبر أخي أحمد». قرأت الشاهدة مرة أخرى وتأكدت من صحة ما يقول. اعتقدت هناء أن الموضوع انتهى عند هذا الحد، وأنه يريد أن يعرّفها على قبر أخيه الشهيد، ولكن ذلك لم يبدد خوفها، فقد كان للمقبرة هيبتها

الطاغية عليها والتي تجعلها مشلولة التفكير. بعد عدة خطوات، وبعد عدة صفوف من القبور أوقفها سعيد من جديد أمام قبر، وقال لها: «احزري هذا القبر لمين؟» نظرت هناء إلى القبر وقرأت الشاهدة، وقالت: «بعرف، هذا قبر ابن عمك، اسمه على اسمك، أكيد حزرت؟» ضحك سعيد بقوة، وعرف أن مفاجأته ناجحة. نظر إلى هناء الخائفة إلى جواره، وقال: «هذا قبري» أدارت هناء وجهها عن القبر باتجاه سعيد، شاهدته وكأنه شبح خرج من القبر لتوه، ففقدت الرؤية، وسقطت مغشياً عليها. أمسكها سعيد قبل سقوطها على الأرض، أسندها على القبر، وذهب راكضاً إلى غرفة حارس المقبرة وجلب كوباً من الماء، رش وجهها ببعض الماء، وأخذ يلطم وجهها بصفعات خفيفة حتى تصحو، وهو يقول: «شو صار.. شو صار..». أخذت هناء تستعيد وعيها رويداً رويداً، وما إن استعادت ما جرى، حتى قالت بتعب شديد: «إنت مجنون، طلّعني من هون» نظرت خلفها نظرة أخيرة إلى القبر، نظرة كراهية لم تشهدها في نفسها من قبل، ومنذ ذلك الوقت، يسبب لها القبر توتراً كبيراً وألماً لا ينتهي، تكرهه كما لم تكره شيئاً آخر. وكلما ذهب سعيد إلى المقبرة لزيارة قبره تعود لها الذكرى وتستعيد كراهيتها لذلك القبر اللعين. لقد أطاحت مفاجأة القبر بعلاقتهما تماماً، وبقيت هناء أشهراً ترفض الكلام مع سعيد الذي كاد يقتلها بجنونه، وكانت تقول: «مو هيك بتكون المفاجآت، قاتلة» قضى سعيد أربعة أشهر معتذراً منها، دون أن تسامحه، كانت تقول له: «انت بتحب؟ انت، انت جلاد، مجنون، ما في واحد بحب وفي براسه عقل بيعمل اللي عملته باللي بحبه» كان يقول لها: «كل اللي بتقوليه صح، أنا بستاهل ضرب بالصرامي، ما كان قصدي، أنا كنت حمار، منشان الله سامحيني، رح أطق من القهر» لم تكن قادرة على مسامحته، فقد شعرت عدة مرات في المقبرة أن قلبها سيتوقف عن الخفقان، وأنها ستموت لا محالة. كاد سعيد يقتنع أن العلاقة بينهما قد انتهت تماماً، عندما رمت هناء الموضوع وراءها، تعهد سعيد ألّا يقدم على أي سلوك مشابه لهذا السلوك المجنون الذي كاد يقتلها، ولكنها أخطأت بأنها لم تأخذ منه تعهداً بأن لا يزور قبره مرة أخرى، فهي لم تكن تعرف أنه يزوره كل عيد.

عندما تستعيد هناء ذلك السلوك المجنون ينتفض جسدها، وكأن سعيد ارتكب حماقته الآن. صحيح أنها غفرت له فعلته، ولكنها لم

تنسَها، وظلت تسبب لها التوتر الشديد.

٣

دخل سعيد مطبخ بيته الصغير صباح العيد ليضع الأغراض التي اشتراها من السوق هناك، كانت هناء في المطبخ تغسل الأواني لتحضير الفطور. سمعت صوت الباب الخارجي، فُتِحَ وأغلق، فعرفت أن سعيد عاد من زيارة المقبرة. وضع الأغراض في زاوية المطبخ، بادرها القول: «كل عام وأنت بخير»، اقترب منها من الخلف وقبل رأسها. لم تستدر، ولم ترد عليه. وعندما شعرت أنه اقترب منها، وأصبح خلفها تماماً، نظرت بمحاذاة جانبها الأيسر، دون أن تلتفت إليه، فاستطاعت رؤية حذائه المغبر، تأكدت أنه كان هناك في المكان الذي تكره. رغم أنها لم تكن بحاجة لمشاهدة الغبار لتعرف أنه كان هناك. تتمنى في كل مرة أن يسمع كلامها ولا يذهب إلى هناك، لكنه في كل مرة كان يخيب أملها ورجاءها ويذهب، وكأن قوة سحرية تجذبه إلى هناك! وعدها مرات عدة بأنه لن يذهب، كانت تعرف أنه يكذب عليها. وعندما كانت تواجهه، كان يعترف فوراً أنه كذب عليها وأنه ذهب إلى قبره ...... ولم يكن يجد أي سبب، لذلك لم تكن تخرج من فمه سوى التأتأة. لم يكن قادراً على الكذب على هناء في هذا الموضوع، وكأنها كانت تشم رائحة المكان في ثيابه، فتعرف أنه ذهب إلى هناك، هكذا اعتقد لبعض الوقت. وفي مرات أخرى اعتقد أنها ترسل وراءه من يراقبه، وبذلك تعرف أنه ذهب إلى هناك. لكن هناء كانت تعرف في قرارة نفسها أنه ذهب إلى هناك، لأنه يعود بحالة غريبة، يصبح كأنه شبح، شبح حقيقي، شخص موجود وغير موجود. عندما يتكلم معها بعد الزيارة، تشعر أنه يكلمها من عالم آخر، عالم مجهول لا تعرفه. وفي كل مرة تقول لنفسها أنها لن تفتعل مشكلة معه من أجل زيارة القبر، ولكنها ما إن يرجع من هناك وتجده شبحاً يتحرك، حتى تجد نفسها تشتعل ناراً لا تنطفئ، ولا تعرف ما الذي تقوله لشدة انفعالها وسخطها

عليه. قالت لـه بكل هدوء دون أن تلتفت إليـه، لأنـها لا تريد أن تـرى الشبح الذي صاره، وداخلها تشتعل نار حارقة: «رحت لهنـاك؟» تجنبت تسمية القبر، كانت موقنة أنه ذهب وأنه لم يستمع إلى كل توسلاتها لـه بألا يذهب، وكانت تعرف أن الموت وحده هو الذي يمنعه من الذهاب إلـى هنـاك. أجاب سعيد ببـرود: «رحـت». سـالت الـدموع مـن عينيهـا، وشعرت أن شيئاً يكوي داخلهـا. كانت مـا تـزال تغسل الأطبـاق، عنـدما رفعت الصحون أمامها إلـى الأعلـى وضـربتها بقوة فتحطمت جميعـاً داخل المجلى وتنـاثرت شظاياها علـى طول المطبخ. جفل سـعيد فـي مكانه من صوت تحطم الصحون العالي في الصباح الهادئ. استدارت راكضـة ودموعهـا تسيل علـى خديها، قالت دون أن تلتفت: «إنـت بِدَّك تموتني!» وخرجت من المطبخ، صارخة: «امتـى الله يوخـدني ويريحنـي منـك، شـو سـويت حتـى استـهال هـاي العيشـة». استيقظ الولـدان علـى صوت تحطم الزجاج، كانا يقفان خـائفين ويفركـان عيونـهمـا أمـام بـاب غرفتهما، عندما مرت أمهما من أمامهما إلى غرفة والديهما. لم يـرد سعيد على ما قالت هناء، ولم يكن لديه كلام يرد به، فعلى مدى سنوات طويلة يتشاجران حول الموضوع ذاتـه، وكل كـلام يمكن أن يقال، قالـه من قبل، حتى لم يعد هناك ما يقال. وكل كلام لإقناعه بالعدول عن هذه الزيارة التي تخيفها قالته هناء دون جدوى، وظهرا فـي هذا الموضـوع كأنهما يديران حوار طرشان.

حـاول سـعيد أن يفسر لهنـاء ذهابـه إلـى هنـاك، دون أن يسـتطيع إقناعهـا، بـل دون أن يقتنـع هـو نفسـه بتفسـيراته وتبريراتـه. سـأل نفسـه بعيداً عن هنـاء واحتجاجاتها علـى زيـارة القبـر: «ليش بـروح لهنـاك؟» أجاب إجابات عديدة دون أن يكون أي منها مقنعاً لـه. وطالمـا هـو غير مقتنع بما يقوله لنفسه، كيف يستطيع إقناع هناء التي تكره ذلك المكان؟! كان سعيد يشعر نفسه أسير القبر، شيء أقوى منه يشده إلى هنـاك، إلـى حيـث يحـب أن يكـون كمـا يعتقـد. هنـاك مكانـه الطبيعـي، والحيـاة التـي عاشها كلها بعد جنازته الرمزية فائضة عن الحاجة، حيـاة لا لـزوم لهـا، فقد خسر أجمل طريقة يمكن أن يموت بهـا، ولـن يسـتطيع يومـاً أن ينـال شرف الموت بالطريقة التي مات بها وعاد. كان يجب علـى تلك الطلقة التي اخترقت كتفه أن تخترق قلبه، وأن يكون موتـه حقيقيـاً لا زائفـاً. لـو مات وقتها لكان قبـره قبـراً فعليـاً، ولـيس رمزيـاً، حتـى ولـو لـم تكـن فيـه

جثته! تذكر أنه شعر بشيء حارق يخترق كتفه وسط إطلاق رصاص كثيف، عرف أنه يأتي من أكثر من جهة، عندها صرخ برشيد الذي أطل برأسه من وراء التلة: «تراجعوا». وأخذ يطلق النار كيفما اتفق على الدوريات الإسرائيلية التي وقع في فخها. اختفى رشيد وبقية المجموعة، وبعد قليل أغمي عليه، ولم يعد يعرف ما حدث. لم تكن المرة الأولى التي يذهب فيها في دورية داخل فلسطين، كانت المرة الثالثة. في المرتين السابقتين لم يحصل أي اشتباك، كانت دوريات استطلاعية. وكان في كل مرة يقطع الحدود اللبنانية الفلسطينية يعتريه إحساس غريب، كان هذا الإحساس يأتيه عند الحدود تماماً، وليس عند الفاصل مع الإسرائيليين الذين تقدموا عدة كيلومترات في اجتياح العام ١٩٧٨ لتشكيل منطقة أمنية عازلة. إحساس لم يشعر به من قبل، كان يتذكر كلام جدته من أن فلسطين: «غير شكل» ويشعر فعلاً بذلك، لماذا؟ لا يعرف. لم يكن هناك ما يميز الأراضي اللبنانية من الأراضي الفلسطينية، ولكن ما إنْ يصل إلى الأراضي الفلسطينية حتى يختلف كل شيء داخله ويتغير، يشعر أن رائحة الأرض مختلفة، وأن هذا المكان مكانه، وجميع الأمكنة التي عاش فيها في الشتات ليست مكانه، ولا يشم فيها رائحة تشبه عبق ما يتنشقه على هذه الأرض، وشعر وقتها أن هذا مكانه الطبيعي، أكثر منه عندما تعرَّف على فلسطين في حكايات جدته.
في كل مرة يعبر الحدود كان يتذكر ما رواه نبيل بائع شتلات الورد آلاف المرات لكل زبون مر عليه ليشتري الورد، أو جاء إليه ليستمع إلى روايته المجنونة والمضحكة. كانوا في المخيم يعتبرون نبيل نصف مجنون، روى لكل من صادفه، سواء كان يعرفه أم لا قصة خروجه من فلسطين إلى لبنان، كان يقول: «آه، إحنا شو مجانين، لما طلعنا من فلسطين كان عمري ست سنين، كنت بعدني ما فُت المدرسة، كانوا بفلسطين بفوتوا المدرسة بالسبع سنين، طلعنا وما فت على المدرسة لليوم. آه.. كان بدي أروح على المدرسة بس ما صحَ لي. ليلة ما طلعنا كنا قاعدين في البيت، سمعنا صوت انفجارات، شي بقول بوووم.. بووم، قال أبوي: «ضبوا الغراض، بدنا نمشي» ضبت أمي شوية غراض، قال أبوي: «رايحين على لبنان» قالت أمي: «طَوِّلْ بالك يا زلمة شو لبنان؟!» قال: «خلصْ قلت على لبنان يعني على لبنان» ضببنا غراضنا والطَّخْ شغال بكل فلسطين وقت حرب الهجة. بس مشينا مشي

معنا كلبين كنا مربينهن بالبيت. مشينا بالليل والكلاب بتحرسنا، كنا ميتين من الخوف نوقع بشي كمين يهودي، كان الدبح شغال وين مكان، ضوعنا نص غراضنا عَ الطريق، وفي شي رميناه لأننا ما عدنا قادرين نحمله. كنت ماشي نص نايم. ساعات واحنا نمشي ما كنا عارفين وين ماشيين، وعلى وش الصبح أول ما شقّ الضو، قال أبوي: هاي لبنان، ما في شي بقول انو هون لبنان وهون فلسطين. بس وصلنا على الحدود، وقف الكلبين هناك، وما عاد مشيو معنا، عووا علينا كثير، ناديتهم ما ردوا عليّ، وقف الكلبين هناك وما رضيوا يفوتوا على لبنان، بس مشينا، دار الكلبين ظهرهم ورجعوا على فلسطين». في كل مرة ينتهي نبيل من روايته تفيض عيناه بالدموع، ويضيف بحسرة وحرقة مفجعتين: «الكلاب ما قبلت تطلع من فلسطين، بس إحنا طلعنا، والله غضب علينا وعشنا مثل الكلاب». يحلف نبيل أغلظ الأيمان أن ما يرويه صحيح، وأنه شاهد الكلبين بأم عينه يقفان على الحدود وأنهما نظرا إليه بعض الوقت، ونبحا من أجل أن يعودوا معهم، وعندما سار نبيل وأهله باتجاه لبنان، عاد الكلبان إلى فلسطين. وعندما اجتاز سعيد الحدود إلى فلسطين أول مرة، وشعر ما شعر به من اختلاف أحاسيسه، صدّق رواية نبيل التي لم يصدّقها أحد. ومرة أخرى تذكر رواية نبيل التي لم تُصدَّق وصدقها، لأنه لم يستطع أن يروي رواية يمكن تصديقها عن علاقته بقبره، رواية مقنعة، صحيح أن لا أحد يسأله عن زيارة قبره سوى هناء التي تعتبرها فأل سوء عليه وعلى عائلته، ولكن الآخرين يقولون: «يا أخي، طالما هالزيارة بتسبب المشاكل، بالناقص منها؟!». ورغم أن الجميع قال له هذا الكلام، أو كلاماً مشابهاً، فإنه لم يستطع أن يتوقف عن زيارة القبر، ولم يستطع أن يجد رواية يُقنع بها الآخرين عن أهمية زيارته لقبره، والجميع اعتبر ما يقوم به مجرد عناد مبالغ فيه ولا طائل منه. ولن يقنع أحداً، إلا إذا اختار رواية مجانين، وقال إنه مسحور لذلك يبقى منجذباً رغماً عنه إلى القبر، الذي يتأمل من خلاله حياته الفائضة عن الحاجة بعد تلك الذروة الأعلى في حياته والتي تراجعت طوال السنوات اللاحقة لاستشهاده، والبطولة التي تحولت إلى شيء عادي محترم في زمن سابق، تحولت بعد سنوات إلى شيء مبتذل وممل. كيف يقنع هناء أنه ليس متمسكاً بشيء مجنون وأن ما يفعله وإن كان تفاهة فهو شيء في غاية الأهمية بالنسبة له؟ لماذا في

غاية الأهمية؟ هو لا يعرف! ولكنه يشعر أن هذا أمر لا يمكنه الاستغناء عنه. كل الجهود التي بذلها على مدى سنوات لإقناع هناء بأن ما يقوم به، لا هو مؤذٍ ولا هو خطر، ذهبت عبثاً.

٤

عندما خرجت هناء من المطبخ متجنبة صداماً محتماً مع سعيد، كانت تلعن حظها الذي أوصلها إلى هذا المكان، لامت نفسها كثيراً على مدى سنوات زواجها على موافقتها على الزواج من سعيد. لقد عرفته وأحبته، واعتقدت أن الحب وحده يكفيها للذهاب معه إلى نهاية العالم. بقي هذا الحب متوتراً منذ ولادته، ولم يغير زواجهما من هذا التوتر شيئاً. ولامت نفسها على الاستمرار في علاقة كان واضحاً منذ البداية أنها علاقة فاشلة! ولامت نفسها أكثر لأنها قادتها إلى زواج كان حوله الكثير من إشارات الاستفهام. تحدت الجميع في هذا الخيار وكان لها ما أرادت. اختلفا أكثر من مرة وتركا بعضهما، ومرات عدة اعتبرت أن قصتها مع سعيد قد انتهت، لكنها كانت تعود لترضى تحت إلحاحه واعتذاراته، وتحت إلحاح شوقها إليه. شتمت نفسها كثيراً لأنها لم تكن قوية بما يكفي لتصمد في مواجهة إلحاح سعيد ولم تقسُ على قلبها قليلاً، وتنتهي من هذه العلاقة مرة واحدة ودونما رجعة وإلى الأبد. وبعد أن كانت تعتقد أنه لا مستقبل لها بعيداً عن سعيد، أصبحت تملك قناعة راسخة أن أي مصير بعيد عنه كان يمكن أن يكون أفضل لها من الحياة التي تعيشها معه! وبعد زواجها اختلفا كثيراً وذهبت إلى بيت أهلها عدة مرات، لكنها لم تكن تملك الجرأة على اتخاذ القرار بالانفصال النهائي عن سعيد مبكراً. كانت تحلف الأيمان أنها لن ترجع له مرة أخرى، وأنه شخص لا يطاق، شخص مهووس بالشك، يبالغ بحساسيته بأمور لا تستحق ذلك أبداً، لا شك أن فيه مسٌّ من الجنون. لكن هذه الاتهامات جميعها لا تلبث أن تتراجع وتختفي، وتعود لترى سعيد الطيب من جديد وتغفر له، تعود لتعيش معه في ذلك البيت الصغير الذي تحبه أحياناً، وتكرهه أحياناً أخرى. كان يعتذر عن كل شيء، ويحقق لها أي طلب تطلبه بعد كل

خلاف، حيث يبدو نادماً على ما فعله، حتى ولو لم يكن يشعر بأنه مخطئ، يشعرها بالندم حتى على أشياء لم يفعلها إذا كان ذلك يرضيها، والشيء الوحيد الذي امتلك تجاهه عناد ثور هو زيارة قبره، فلم يعتذر عنها، ولم يبررها، وكان على استعداد لأن يخسر كل شيء ولا يكف عن زيارته، وهذا من الأشياء النادرة التي لم تكن هناء قادرة على فهمها. لقد أحبته وكرهته في الوقت ذاته، وهي لا تعرف كيف تفسر مشاعرها المتناقضة نحوه، كيف تكرهه وتحبه في آن معاً؟! لم تستطيع أن تقول ذلك لأحد حتى لا تتهم بالجنون. كانت تحب قوته وتكره ضعفه، ولكن ضعفه وقوته كانا تفسيراً ذاتياً لها! لم تكن قادرة على التنبؤ برد فعله. كانت تستغرب أنه يثور على أشياء تافهة لا تستدعي الثوران، وتستغرب أكثر أنه يسكت عن أشياء تعتبرها تهز الجبال. كيف يفكر؟ هي لا تعرف! لم يكن شخصاً بأقنعة، ولكنه كان نموذجاً للتناقض الصارخ! عندما رمت نفسها على السرير ودفنت وجهها في الوسادة، كانت تقول لنفسها من بين دموعها: «عشت معه كل هذا العمر، لا أنا عرفته، ولا هو عرفني؟! شو هالْجهنم اللي عايشة فيها؟ هو ما بحس فيِّ، هو رجّال بلا إحساس». في كل مرة يتشاجران تتذكر هناء مسيرة العذاب معه وأفعاله التي كانت تضايقها وتكاد تنفجر منها، وتسرد له من وجهة نظرها هذا التاريخ القاسي والممل وحتى المقرف الذي عانته معه. كان شريط الذكريات قد بدأ يفعل فعله في شحنها، ويذكرها بالبؤس الذي عاشته خلال سنوات زواجها الخمس عشرة، شعرت أن حياتها تسير بلا معنى، وهي التي طالما اعتقدت أن حياتها ستكون مسيرة مريحة لحياة سعيدة مشتركة بين حبيبين. وكانت تقول لنفسها: «كان يمكن تكون حياتي سعيدة ومريحة لو ما تجوزت سعيد». لقد حلمت بحياة سعيدة وهي شابة، وعندما اختارت سعيد كانت تعتقد أنها تستطيع أن تغيره وتجعل منه الرجل الذي تصورته في أحلامها، ويستطيع هو الذي اكتسب وقتها سمعة «البطل» أن يغير العالم من أجلها، وأن يجترح لها معجزة تجعلها سعيدة طوال الوقت. هذه الأحلام التي عاشت عليها وتخيلتها جعلتها لا ترى الاختلافات العميقة بينها وبين سعيد، ليست اختلافات في الطبيعة فقط، بل اختلافات في التربية والبيئة والنظرة للحياة. كانت توافق على آرائه

التي لم تعجبها، لأنها كانت واثقة من أنها تستطيع تغييره، فقد كانت شابة صغيرة وتعتقد أن الحب يستطيع أن يصنع المعجزات. هذه القناعات التي تملكت الكثيرين في مطلع حياتهم، حيث يعتقد الشاب أن العالم كان ينتظره ليتغير بناء على أوامره أو بإشارة منه. لم تكن هناء بعيده عن مثل هذه الأفكار، وكذلك لم يكن سعيد بعيداً عنها أيضاً. وطوال سنوات عيشهما المشترك لم تستطع تغييره كما اعتقدت، ولم يستطع هو تغييرها أيضاً، ولم يستطع أن يجترح لها معجزة حتى تعيش سعيدة. لقد حسبت أن المشكلات التي تجاوزتها خلال علاقتها مع سعيد مشكلات مؤقتة وأنه سيتغير ولو بعد حين، لكنها بعد تلك السنوات التي عاشتها معه، أصبحت تنظر إلى تلك المشكلات القديمة، وكأنها غير قابلة للتجاوز، بل لا تعرف كيف استطاعت تجاوزها أصلاً! إحساسها بهذه النتيجة جعلها تكف عن محاولاتها لتغييره. كانت تشعر بكراهية شديدة تجاهه في مثل تلك اللحظات، وتشعر أنها أضاعت عمرها هباء وبلا معنى مع شخص لا يستحق، ولا تعرف ما الذي يجعلها تتحمل هذا الشخص الكريه. عندما تستعرض تاريخها معه لا تجد ما يستحق الذكر، «يا سلام على هيك حياة، كانت مفاجأته الأولى، أن يُغمى عليّ عندما عرّفني على إنجازه الرائع، عندما عرّفني على قبره، بدل أن يفاجئني بهدية جميلة». قالت لنفسها، وتتالت الهدايا من النوع ذاته ومن العيار نفسه، أزمات بعد أزمات، «اليوم ما في راتب... اليوم أخوي يحتاج مصاري... ويوم صاحبي يحتاج... ويوم يدخل حالة اكتئاب... ويوم كل العالم يقف ضده... ما عشت يوم مرتاحة. تحمَّليني يا هناء، ليش لازم أتحمله؟ لأنو زوجي... اللعنة على هكذا زواج، مليت من خُطبه ومن حججه. ما في شي كاسر ظهري غير الولاد». قالت الجملة الأخيرة مواسية نفسها على زمن انقضى بلا معنى كما تراه اليوم، عمر يُرمَى في المزبلة، هكذا كانت تنظر لعمرها. رغم ذلك فإنها عندما كانت تريد مصالحته، كانت تتذكر له تصرفات أخرى، وعلى قدر ما كانت تشعر بكراهية نحوه، فقد كانت تشعر بحب العالم يشدها إليه، لم يكن يتورع عن تقبيل قدميها حتى أمام الآخرين، ليس تذللاً، بل محبة، كل ما كان يُحصّله كان يضعه بين يديها، عندما يزعجها، كان يحاول استرضاءها بكل الوسائل، فيحفظ طلباتها، ويأتيها بها

كهدايا في أول مناسبة. كان يفرح بها مثلما يفرح الطفل الصغير بلعبة جميلة، يحبها ولم يكن يعرف كيف يعبر لها عن حبه، وكثيراً ما كانت وسائله تخونه، وكانت هي تعرف أنه يحبها وحدها. وهي تذكر له تلك السهرة الفرحة التي دعاها إلى المطعم في بداية زواجهما، وقد امتلك الجرأة أن يطلب من النادل أن يقدم له عشاء كاملاً، بكل المبلغ الذي معه، وقال له: «ما بقدر أدفع ولا قرش واحد زياده، ببساطة هذا كل ما أملك، وما معي غيره، بدنا نتعشى ونشرب شوية بيرة، ونروح على بيتنا مفلسين. اللهم اشهد إني قد بلغت». أمسك يد هناء وقبلها كالمتضرع للسماء. ضحك النادل وقال: «تكرم عينك». لقد كان مبلغاً متواضعاً وقد قدم النادل عشاء متواضعاً، وكان بالنسبة لهما عشاء من الجنة، وكان من أجمل الأيام التي لا تُمحى من ذاكرة هناء، وهو يوم لا يُنسى في حياتهما، وعندما أراد النادل أن يعيد لهما أجرة الطريق تضامناً مع عروسين شابين. رفض سعيد بشدة، وقال له بلغة هازئة: «مين قَلَّكْ احنا شحادين». اعتذر النادل بأدب وتركهما لحالهما. بعد السهرة، ذهبا إلى المخيم مشياً على الأقدام. لقد تجاوزت الساعة الثانية ليلاً، ولم يكن يملك النقود حتى يركبا التكسي. وفي الطريق عندما تعبت من حذائها الذي ضايق قدميها، حملها وسار بها وسط الشوارع الخالية، إلا من بعض المارة القليلين المستغربين هذا المشهد، وهي خجلة تقول له: «نزِّلْني الناس بتشوفنا». «منشان الله نزلني». تقول راجية. وكان يرد عليها: «مال الناس ومالنا». عندما تعبت من المشي، استراحا وجلسا على طرف الرصيف، يتأملان قمراً وسماءً لا تشبه سماء ولا قمر الأيام الأخرى. لقد سرقا يومهما السعيد سرقة، في ظرف صعب كانا يمران به. في مثل هذه الأوقات لم تكن هناء تشعر أنها تحب سعيد فحسب، بل كانت تشعر أنها تعشقه! ولكن، مع الحزن تأتي الذكريات السيئة، والذكريات السيئة ليست قليلة في حياتهما. صباح العيد كان من المتوقع أن يقع الانفجار مثلما كان يحدث في كل عيد. خلال حياتهما الزوجية، كان سعيد يعتقد أنه قدم كل التنازلات التي أرادتها هناء، وكانت مصرة على أن يقدم لها التنازل الأهم ولو كذباً، بألا يزور قبره. لم يكن سعيد يعتبر هذا الموضوع تنازلاً، كما أنه لم يكن قادراً على التخلي عنه. ففي لحظة تأمله في الأواني الزجاجية المحطمة في المجلى والمنتشرة في

أنحاء المطبخ، والتي حطمتها هناء قبل لحظات، شعر سعيد وقتها أن القبر كان في حياته شيئاً كبيراً، ولأول مرة عرف سعيد حقيقة ما الذي يعنيه القبر بالنسبة له، شعر بالارتياح، لقد كان القبر طوال السنوات الماضية حافظاً للتوازن في حياته المضطربة منذ خروجه من الأسر. كان يشعر بذلك كل تلك السنوات، ولكنه لم يكن قادراً على التعبير. وعندما أصبح قادراً على التعبير لم يعد بحاجة لأن يقوله لأحد. خرج سعيد من المطبخ ولحق بهناء إلى غرفة نومهما الصغيرة. أسند ظهره إلى الخزانة التي تقع مقابل شباك الغرفة المطل على الحارة، وكانت هناك منبطحة على السرير أمامه دافنة وجهها في الوسادة، لم تشعر بدخوله الغرفة، ناداها باسمها دون أن يقترب منها أو يضع يده عليها: «هناء.. هناء...». قالت له بصوت عميق ومن دون أن تحرك رأسها ومن وراء الوسادة: «أنا تعبت». سمعها بصعوبة، لم يتحرك من مكانه، قال لها: «وأنا تعبت كمان». انتظرت لتسمع كلماته الأخرى، فقد كانت تنتظر أن يبدأ الصراخ كما في كل مرة، ومثل كل عيد، انتظرت طويلاً، لكن صوته لم يأتها هذه المرة، رفعت رأسها عن الوسادة، نظرت في أرجاء الغرفة الصغيرة، فاكتشفت أنه غادرها، بحثت عنه في المطبخ، وفي غرفة الأولاد، حيث عادوا للنوم من جديد، فاكتشفت أنه غادر المنزل، فاندهشت.

٥

غادر سعيد المنزل، ولم يكن يعرف أين يذهب، فالوقت لا يزال مبكراً على زيارة أحد، واليوم أول أيام العيد وعليه أن يقوم بواجباته الأسرية التي يبغضها منذ كان طفلاً. ولكنه خرج وقال لنفسه: «ما رح إرجع وأتخانق مع هناء، تعبت من هذا الموضوع، رح أغيب شوي منشان تهدى». لم يكن سعيد واثقاً من أن غيابه لبعض الوقت سيجعل هناء تهدأ، ولكنه أمل أن يحصل ذلك. كانت أزقة المخيم لا تزال فارغة من المارة تقريباً، القلائل ممن يعبرون، يعبرون مسرعين وكأنهم تأخروا عن شيء هام، وهم لا يلتفتون إليه. في الليلة السابقة، وهو يوم وقفة العيد، بقي المخيم ساهراً طوال الليل من أجل إعداد مستلزمات العيد التي لا تنتهي حتى صباحه. والذين يستيقظون باكراً، يفعلون ذلك من أجل زيارة المقبرة، يعودون ليناموا من جديد. كان سعيد يذرع أزقة المخيم دون هدف، أغلب المحلات مغلقة وأمامها توضعت كميات كبيرة من القمامة، فهو اليوم الأكثر ذروة في البيع، ولم يكن مضى على إغلاق المحلات سوى القليل من الوقت، وهناك بعض المحلات التي بقيت مفتوحة صباحاً لالتقاط الزبائن الذي تأخروا في شراء حاجياتهم إلى صباح العيد. إنه زمن غير الزمن، منذ أعياد طفولته تغير المخيم وتغير العيد كثيراً. فهذا المخيم البائس، تحول بفعل الزمن والصدفة إلى واحد من أهم أسواق دمشق، لم يعد يحمل من سمات المخيم سوى اسمه، هذا الاسم الذي بات سكانه يخجلون منه، بعد أن تحول إلى مدينة قائمة بذاتها، وبعد أن غزته المحلات الباذخة للألبسة والأحذية وكل مستلزمات السوق الذي يقدم طيفاً واسعاً من الخدمات، ليس لسكان المخيم ومحيطه، بل للكثيرين الذين يأتون من أماكن بعيدة للتسوق فيه، حتى إنه بات يجذب زبائن من بلاد أخرى كالخليج ولبنان والجزائر، لأن أسعاره أرخص من أسواق دمشق الرئيسية في

الصالحية والحميدية وباب توما، وبذلك أصبح سوق المخيم ينافس تلك الأسواق، وبات سكانه خليطاً من سكان دمشق الذين أفقروا ومن سكان محافظات أخرى، وبات الفلسطينيون يشكلون فيه أقلية سكانية. تذكّر سعيد أعياد طفولته، عندما كان المخيم يرزح في البؤس والفقر المدقع، بيوت بائسة وسط أراضٍ زراعية جميلة منحتها الهيئة العامة للاجئين، عبر تقسيمها إلى قطع تتناسب مع عدد أفراد كل أسرة من أسر اللاجئين الفلسطينيين، بيوت بنيت على عجل بمساعدة الأونروا ببعض مواد البناء، لم يكن يظهر للمخيم ملامح معمارية، بل كان مجموعة أبنية متناثرة، بيوت بفتحات سماوية، بصرف صحي مصنوع من قبل أهل البيت عبر بئر تحفر أمام البيت، وتُغطى، وفي البيت بئر أخرى من أجل الحصول على الماء، وأما ماء الشرب فكان يُشترى من الباعة الذين يجلبونه من أماكن أخرى ليبيعوه في المخيم. شارعان كبيران نسبياً كانا يخترقان المخيم، وباقي المخيم عبارة عن أزقة متشابهة وبائسة، وكانت أفضل الأبنية فيه، هي الأبنية التي شيدتها الأونروا، المدارس كمساعدة ورعاية لتعليم أطفال اللاجئين، والمركز الصحي للرعاية الصحية للمرضى، ومركز «الإعاشة» الذي يوزع المساعدات الغذائية العينية على اللاجئين. كان مخيماً كبيراً بمقاييس المخيمات الأخرى في سوريا، ولكن بؤسه كان مثل بؤسها. ولد سعيد في المخيم، وعاش طفولته فيه، وهرب منه مراهقاً. لم يحبَّ طفولته التي قضاها في ذلك المكان، عندما أصابه رمد ربيعي وهو في العاشرة من عمره أفقده البصر لبعض الوقت، أصابه الرعب من أن يقضي حياته أعمى، خاف من ذلك السواد الدائم، كما لم يخف من أي شيء آخر في حياته، حتى عندما واجه الموت لم يخف، كما خاف من سواد العمى، وبقي يخافه طوال عمره. كانت هناك لحظات سعيدة، وهي سعادة مصدرها عدم وعي الطفل للبؤس الذي يعيشه ويحيط به في كل مكان، سعادة تأتي من عدالة تساوي الجميع في البؤس وعدم وجود فوارق امتيازية تُشعر الطفل بالفرق بينه وبين أقرانه من الجيران. كانت مرجوحة الحبال والسينما متعتا العيد بالنسبة لسعيد الطفل. كانت المرجوحة عبارة عن زوج من ثلاثة أعمدة خشبية على شكل هرم، هذه الأعمدة متقابلة يفصل بينها حوالي ثلاثة أمتار، ويصل بين المثلثين عمود خشبي كبير، ويتدلى من وسطه حبلان غليظان يمسكان لوحاً خشبياً بلا حواف،

وكان على من يريد أن يتمرجح أن يمسك بالحبال وأن يحفظ توازنه من خلال تناغمه وانسيابه مع حركة المرجوحة وعدم مقاومتها، ومن لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك كان مصيره السقوط منها، لأن لا شيء يحميه من الوقوع من لوح الخشب المربوط إلى الحبال المعلقة في أعلى المرجوحة. لذلك كان التراب يغطي الأرض تحت المرجوحة، لتخفيف الاصطدام على الطفل الذي يقع من المرجوحة. تذكر سعيد علاقته بالمرجوحة، عندما مر بواحدة مثل تلك التي في ذاكرته، فما زال لها شعبية كبيرة، رغم أنواع المراجيح الأخرى، ورغم مدينتي الملاهي الموجودتين في المخيم. كانت المرجوحة تعطي لسعيد الطفل إحساساً مذهلاً بالمتعة والحرية، كان يحب أن يركبها ليلاً، وكان شريكه في المرجوحة صديقه رشيد، شريكه في كل شيء بعد ذلك تقريباً في طفولته وشبابه الأول. لقد كانا يدفعان المرجوحة إلى أقصاها بانتفاضتهما على حوافها كالنوابض، وهو يقول لرشيد: «شد». ورشيد يقول له الكلمة نفسها. وكان أبو العبد صاحب المرجوحة، يسبُّهما ويطلب منهما تخفيف ارتفاع المرجوحة، ولكنهما يكونان قد أصبحا في عالم آخر، وقد أخذتهما نوبة الضحك بعيداً. صوت أبي العبد يأتيهما من عالم آخر، يقول: «ينعل أبوكو وأبو اللي ركبكو. خلص ما تعلقوني مع أهاليكو، أنا مش ناقص». ولكن لا أحد يسمع ما يقول. سعيد يرى رشيد ممدداً بين النجوم عندما تكون المرجوحة في أقصاها، في الوقت الذي يرى رشيد سعيد ممدداً على الأرض الترابية أسفل المرجوحة، وعندما تذهب المرجوحة إلى الجانب الثاني ينعكس المشهد. كانا يتحكمان بالمرجوحة كما يشاءان، من خلال حركة اهتزازهما على حافة اللوح الخشبي، فقد كانا طفلين شقيين بلياقة عالية. لم يكن أبو العبد يستطيع إيقاف المرجوحة، لأنها بقوتها القصوى، وإذا حاول أن يمسك الحبل لتخفيف سرعتها، فإن الطفلين سينقلبان حتماً، هو يعرف ذلك، ولذلك، لا يبقى أمامه سوى أن يسبَّ ويلعن، وينتظر حتى تنتهي موجة الجنون التي تلبست «القردين» كما كان يقول عنهما. كان الطيران على لوح المرجوحة متعة لا يمكن أن تجاريها أي متعة، كانا يشعران بالخفة والفرح اللذيذ، كانت النسائم التي تأتي بها حركة المرجوحة تجعلهما يغادرن العالم إلى عالمهما الخاص الذي يسمعان فيه صرير الحبال على العمود الخشبي بسبب قوة

الحركة، وصوت أبي العبد الذي يسب ويلعن قادماً من عالم آخر. لم يكونا ينزلان من المرجوحة، حتى تصبح أيديهما غير قادرة على مسك الحبل الخشن. كان أبو العبد يحلف الأيمان أنهم لن يركبوا مرجوحته مرة أخرى، لكن في اليوم التالي يقولان بعض الكلمات الطيبة، ويشترط عليهما ألا يفعلا كما حدث في اليوم السابق، يتعهدان له بذلك، وما إن يصعدا إلى المرجوحة حتى يخلا بوعدهما، يعود أبو العبد إلى الشتم والسب أكثر من اليوم السابق. السينما المنصوبة في المخيم بمناسبة العيد كانت المتعة الأخرى المحببة لسعيد، لم يكن رشيد شريكه في هذه المتعة، فقد كان رشيد غير قادر على الجلوس في مكان واحد دقيقة كاملة، فكيف يستطيع الجلوس نصف ساعة في خيمة صغيرة مع عشرات الأطفال دون حراك؟!. لم يكن يقبل الذهاب مع سعيد إلى خيمة السينما. لا يذكر سعيد الأفلام التي شاهدها، فهو لم يشاهد فلماً حقيقياً، كانت هذه السينما تعرض مقاطع من أفلام لا أحد يعرف لها رأساً من قدمين، إنما كانت تعتمد على السحر الذي يجعل الأطفال يصابون بالبلاهة وهم يشاهدون الحركة الملونة على الشاشة البيضاء القابعة في عمق الخيمة، خيوط الضوء المنبعثة من آلة العرض كانت تسحر سعيد وهي تتغير ذاهبة إلى الشاشة لترسم خيولاً وسيارات ونساء شقراوات ورجالاً بقبعات وجبالاً جرداء وصحارى ممتدة إلى ما لا نهاية. كان ذلك قبل أن يأتي والدهم بالتلفزيون بسنوات، وعندما أصبح لديهم تلفزيوناً بقي سعيد في مراهقته مدمناً على السينما، وكان يشاهدها كل يوم عندما تتوفر له الفرصة، خاصة عندما كان يعمل في أيام الصيف ويأخذ أجراً، حتى أنه شاهد بعض الأفلام عشرات المرات، في السينما البائسة واليتيمة الموجودة في المخيم، قبل أن يعرف الطريق إلى سينمات العاصمة. يعود العيد من جديد، ولكن سعيداً الطفل غادر طفولته منذ زمن بعيد، ولم يعد يرى شريكه القديم سوى في أوقات نادرة. أحس بعدم الوفاء تجاه رفيق عمره القديم، وهو يتذكره اليوم للمرة الثانية، لقد تذكره في المقبرة عندما قال له: «يا حرامي سرقت جنازتي مني، كان لازم تكون الجنازة الحلوة جنازتي، مو جنازتك، وكان لازم صورتي تكون على الملصق مو صورتك، ما كان لازم يوم العملية تقولي تراجع». والآن يتذكره كشريك دائم في مرجوحة أبي العبد. ولكن رشيد لم يكن شريكه في آلاف الذكريات فحسب، بل كان

شريكاً لعمره أيضاً. كان رشيد يلح عليه بقوة، فوجد نفسه يسير باتجاه دكانه.

٦

تقع دكان رشيد في الأزقة الخلفية للمخيم، وهي الأزقة التي تمر الشمس عليها مرور الكرام لضيقها. وهي الأحياء التي حافظت على فقرها، مقابل الأحياء التي شهدت الغنى لتحولها إلى سوق مزدحم على مدار السنة. دكان رشيد متواضعة بل إنها أقرب إلى الفقر، بقالية فيها الكثير من الأشياء، لكنها تفتقد الترتيب. هكذا يراها أي داخل إليها، كومة من الفوضى. لكن رشيد يعرف مكان كل إبرة فيها، فهي مرتبة بناء على وجهة نظره، ولا يهمه كيف يراها الآخرون طالما أنه يعرف مكان كل شيء فيها وقادر على الوصول إليه سريعاً. لقد أصبح عمر هذه الدكان عشر سنوات، لم يحبها رشيد في يوم من الأيام، لكنه لم يكرهها أيضاً، لقد وجد نفسه يتعايش معها. وفي كثير من الأحيان كان يشكر دكانه، التي وفرت له الفرصة أن يبقى خارج البيت أطول وقت ممكن بعيداً عن زوجته الثرثارة. صحيح أنها قريبة من بيته، ولكن هذا لا يؤثر كثيراً على الهروب المستمر من البيت الذي يُسعد رشيد. عندما وصل سعيد إلى ذلك الزقاق الذي يوجد فيه دكان رشيد، لم يكن مضى وقت طويل على فتح رشيد دكانه. ولأنه من النادر أن يكون هناك زبائن في مثل هذه الأوقات من الأيام العادية، فإن وجود زبائن صباح العيد أمر أكثر ندرة، ولكن رشيد الهارب الدائم من البيت، ما كان ليجلس في البيت حتى في العيد. كان رشيد يقف أمام دكانه عندما أطل سعيد من رأس الزقاق، استغرب أن يأتي إليه في هذا الوقت المبكر، في مرات سابقة كان يأتي في أوقات متأخرة من الليل، أمَّا أن يأتي مبكراً وصباح العيد فهذه أول مرة يفعلها. قال رشيد لنفسه: «إن شاء الله خير». كان رشيد يتأمل وجه سعيد القادم باتجاهه والذي ظهرت عليه علامات الضيق واضحة. تجاهل رشيد تلك العلامات المرسومة على وجه صديقه وقال: «خير، على الصبح، شو ذكَّرك فينا بعد طول

غياب؟!.. وجهك ولا ضوء القمر؟!». قال سعيد مفتعلاً الجدية: «اسمعْ من أولها، أنا ما ناقصني مسخرتك». وأضاف وهو يمد يده مسلماً على رشيد: «على كل حال، كل عام وأنت بخير، مع إنك ما بتستاهلها». وقبَّلا بعضهما. ولأن رشيد لا يستطيع الكف عن سخريته، وكان يحب إغاظة سعيد، فما كان منه إلا أن أغاظه مباشرة، عندما شاهد ابنه الكبير في الحارة، ناداه: «يا سعيد يا حمار». كان قد سمى ابنه على اسم صديقه سعيد، ولم يكن ينادي ابنه بهذه الصيغة، كان يناديه، إما «يا سعيد». وإما «يا حمار يا ابن الحمار». ولكنه هذه المرة ناداه بهذه الطريقة، ليُسمِعَ صديقه سعيد الشتيمة لتطابق الأسماء ممازحاً. وعندما وصل الولد ابن العاشرة عند أبيه لم يكن متأثراً بما قاله أبوه كشتيمة، بل على العكس كان يركض فرحاً باتجاه والده. قال: «سلم على عمك سعيد». سلم الولد وقال: «كل عام وأنت بخير». وطبع قبلته على خد سعيد الكبير الذي يحمل اسمه، الذي تناول من جيبه قطعة نقود ورقية، وأعطاها للصغير. قال رشيد: «والله يا سعيد ما في داعي». قال سعيد: «أنت ما دخلك». أخذ الولد القطعة النقدية وقال: «شكراً». نظر رشيد إلى الولد الفَرِح وقال: «روح يا حمار يا ابن الحمار قول لامك تعمل شاي». ذهب الولد قافزاً بخطوات فرحة. نظر سعيد إلى حركات الولد الفرحة، وقال: «الله يخلي لَكْ اياه».

حمل رشيد كرسيين بلا مسند ظهر، وقال لسعيد: «تعال نقعد بالشمس، اليوم الشمس حلوة، وهي شوي بتمر بالحارة وبتروح، كأنها بتستحي من الحارة، أو بتهرب منها». وضع رشيد الكرسيين في منطقة تنتشر فيها الشمس مقابل الدكان. جلسا متقابلين. قال سعيد: «تذكرتك الصبح بالمقبرة...». قاطعه رشيد رافعاً يده عالياً قائلاً: «الله أكبر عليك، ما لقيت تتذكرني غير بالمقبرة. الله لا يعطيك عافية يا زلمه». قال سعيد: «انت ما بتبطل عادتك، اقعد واسمع». قال رشيد: «أسمع شو؟ ما انت من صبحية ربنا جاي تحكيلي على المقبرة، شو هالحديث اللي بفتح النفس على الصبح». قال سعيد: «الظاهر ما بدك اياني أحكي، أقوم أروح على بيتنا أحسن لي». هم بالنهوض. فقال رشيد: «والله العظيم ما بتروح، وين نروح بالشاي، انكبّوا». قال سعيد: «تذكرتك اليوم الصبح، اتذكرت شو قلت عن جنازتي، وتذكرتك قبل شو، لما شفت مرجوحة زي مرجوحة أبو العبد، الله يرحمه». قال رشيد: «آه...». وتذكر عندما

قال له سعيد: «تراجعوا». يوم العملية، لم يقبل أن يتراجع والاثنين اللذين معه في المجموعة، أمسكا به ومنعاه من التقدم باتجاه سعيد، فقد كان سعيد قائد المجموعة، وكان عليهما أن يستجيبا للأوامر، لقد كان الرصاص كزخّ المطر على المكان الذي يختبئ فيه سعيد، والأضواء الكاشفة كانت تضيء المكان خلف التلة، لقد أجبراه على التراجع، أمسكا به وركضا، وكان رأسه يلتفت إلى الوراء، لقد ترك سعيداً وراءه، ترك نصفه هناك تحت وقع الطلقات التي تدوي في كل مكان، عندما قال له: «سرقت جنازتي» لم يكن يمزح، كان يقولها بكل جدية. رشيد لم يكن ينوي التراجع، ولا كان ينوي أن يترك سعيد وحده، ولطالما واجها المآزق معاً منذ كانا طفلين في أزقة المخيم حتى تلك الليلة التي سقط سعيد فيها في الأسر، واعتقد رشيد ومن معه أنه استشهد، لأنهما سمعا صرخة الألم من بين أصوات طلقات الرصاص. بقي رشيد زمناً طويلاً يُحمّل نفسه مسؤولية استشهاد سعيد، ولم يستطع العودة إلى المخيم طوال السنوات التي قضاها سعيد في الأسر، سوى مرة واحدة، هي تلك المرة التي حضر فيها جنازة سعيد، لم ير أحداً في المخيم، حتى من أهله. ما إن انتهت الجنازة حتى غادر رشيد المخيم على عجل، لأنه لم يكن قادراً على الكلام. فحتى لحظة خروج سعيد من الأسر، لم يكن أحد يعرف أنه على قيد الحياة، ولم يكن رشيد قادراً على مواجهة عيون والدة سعيد المفجوعة بولدها الثاني، التي ستلومه حتماً، لأنها لا بد عرفت أنهما كانا معاً في تلك العملية. وهو يعرف أن الأم لم تشفَ من استشهاد ابنها الكبير بعد، فكيف يواجه عيون أم مفجوعة بولد آخر. آثر أن يبقى في لبنان، ولم يزر المخيم طوال وجوده هناك، والتي امتدت لما بعد الخروج الفلسطيني من بيروت بعد أن اجتاحت إسرائيل لبنان في العام ١٩٨٢. قال رشيد: «ما كان بدي أتركك هذاك اليوم». قال سعيد: «بعرف». وتذكر سعيد أنه عندما تقدم أمام التلة، واكتشف أنه وقع في الكمين، مباشرة، قال لبقية المجموعة: «تراجعوا». بين خسارته لنفسه وبين خسارة كامل أفراد المجموعة، اختار التضحية بنفسه، «فالطريق طويلة» قال لنفسه في ذلك الوقت، خاف وحدته، فزاد إطلاق النار من بندقيته، رمى القنابل التي يحملها، عندما شعر بالطلقة الحارقة التي اخترقت جسده، عرف أن الموت قادم، أفرغ كل الرصاصات التي معه، لم يعد يستطيع فعل شيء، سوى التمدد في

المكان الآمن الذي وجد نفسه فيه والانتظار. أخذت أصوات الطلقات تخفت، بدأ كل شيء يدور، لم يعد يسمع شيئاً، شعر روحه تغادره، ساد ظلام قوي. غاب سعيد عن الوعي، ولم يستعد وعيه، إلا في المشفى الإسرائيلي، وهو مقيد إلى سريره، والشاش الأبيض يغطي كتفه وصدره وبعضاً من ساعده. يتذكر رشيد أنه عندما قطع الحدود عائداً، عاهد نفسه أن لا يعود إلى قطعها مرة أخرى، لأنه لن يستطيع أن ينسى سعيد، فسعيد نقطة ضعفه. وقتها قال لنفسه: «ليش ما قلت لسعيد أنا بحبك». صرخ رشيد بأعلى صوته: «بدي ذبح، ما كان لازم أتركه». عندما فقد سعيد أدرك وقتها المكانة الكبيرة التي يشغلها في حياته، وبدأ يشعر كيف تحولت حياته إلى فراغ بدون سعيد. في اليوم التالي للعملية أبلغ رشيد قائد المعسكر أبا طارق أنه لا يرغب في الذهاب من جديد في دوريات إلى فلسطين. وقال له قائد المعسكر: «إذا كان بدك تروح على البيت، ما في مانع، حتى لو بدك تروح وما ترجع». قال رشيد: «أنا بدي انتقل بعد ما برجع من جنازة سعيد». التي عرف بها صباحاً من أبي طارق نفسه، وعرف أنهم سيقيمون لسعيد جنازة رمزية. كان على رشيد أن يهرب من كل الأماكن التي تُذكره بسعيد. بعد عودته من دمشق ترك الجنوب اللبناني، وانتقل إلى بيروت، محاولاً تجاوز استشهاد صديقه، الذي يُحمّل نفسه مسؤوليته.

أوقف سعيد الصغير سيل الذكريات لسعيد الكبير ولوالده عندما أحضر الشاي، كان الكأسان يصدران صوتاً لأنهما يصطدمان بعضهما بعضاً، لأن يد الولد الصغيرة ترتجف وهي تحمل الصينية، وضع الصغير الصينية بينهما وكأن جبلاً انزاح عن ظهره، وعاد راكضاً إلى البيت.

٧

«حياتي دين برقبتي إلك» قال رشيد لسعيد وهو يصب الشاي في الكأسين. قال سعيد: «أنا ما إلي عندك شي». عندما قررا الالتحاق بالعمل الفدائي تعاهدا قبل أن يخرجا من المخيم، أنه إذا تعرض أحدهما للموت فإن الآخر لن يتركه يموت وحده، وقالا لبعضهما: «بنموت سوا أو بنعيش سوا». وبعدها غادرا المخيم إلى لبنان. منذ اختفاء سعيد شعر رشيد أنه أخلَّ بالعهد الذي قطعه في المخيم، لقد ترك سعيداً يواجه موته وحيداً، ورافقه هذا الإحساس طوال عمره، حتى بعد خروج سعيد من الأسر. صحيح أن سعيداً لم يمت، ولكن سنوات فقده كانت سنوات قاسية جداً على رشيد، وهي السنوات التي اعتقد الجميع أن سعيداً قد استشهد. بعد استشهاده أصابت الكآبة رشيد، فلم يستطع أن يحتفظ بصورة له معه. وعندما كان يشاهد ملصق استشهاد سعيد في أي من مكاتب الفصيل الذي ينتمي إليه، كانت تصيبه حمى داخلية قاتلة، ولا يستطيع أن يبقى في المكان، وسرعان ما يغادره. بعد سنتين، وفي الاجتياح الإسرائيلي للبنان العام ١٩٨٢، شعر رشيد أنه عوّض خذلانه لسعيد. فقد أغلقت إسرائيل كل الطرق المؤدية إلى بيروت واكتمل الحصار الإسرائيلي للمدينة، كان قد مضى على الحرب عشرون يوماً، في تلك الحرب لم تتوقف إسرائيل عند نهر الأولي كما كان متوقعاً، لقد أصبحت الحرب شاملة لكل الأراضي اللبنانية، وكان حصار بيروت قد بدأ رغم أن القتال مستمرٌ في الجنوب. كانت الفوضى في كل مكان، وكانت أصوات الانفجارات في كل مكان أيضاً، والكماشة الإسرائيلية أطبقت على بيروت، وكان من الواضح أنها لم تأتِ للنزهة، وأن الحصار سيطول، ولكن إلى متى؟ لم يكن أحد يعرف! كان رشيد في محور حي السلم، جاء أبو طارق قائد معسكره السابق ومعه ثلاثة شباب في عمره، عندما شاهدهم رشيد يقتربون، أحس قلبه يخفق بشدة،

هذا سعيد يأتي من الغيب مع أبي طارق. لم يصدق عينيه، ولكن سعيداً لم يبدِ أي اهتمام برشيد، وعندما وصلوا قُبالته، قال أبو طارق: «الشباب طلاب جامعة، فلسطينيين إجوا من ألمانيا، ورح ينضموا لمجموعتك». كان أبو طارق يتحدث، ورشيد يحملق بسعيد الجديد. انتبه أبو طارق لرشيد، وقال له ضاحكاً: «مانوا سعيد، أنا متلك لما شفته صدمني، فكَّرته سعيد». نفض رشيد رأسه بشده مستنكراً، لقد كان الشبه بينهما لا يصدق، العينان ذاتهما والأنف ذاته والشعر ذاته، وتدويرة الوجه ذاتها... كل شيء ذاته حتى الطول ذاته أيضاً. لولا كلام أبي طارق لما صدق رشيد أنه ليس سعيداً. لم تمهلهم المدفعية الإسرائيلية طويلاً، وبدأت تقصف المكان، احتموا بخنادقهم، وبقيت عينا رشيد على شاكر الشبيه بسعيد طوال الوقت. لم يكن تدريب الشباب الجدد عالي المستوى، بضعة أيام من التدريب في معسكر قرب دمشق قبل الالتحاق. لم تكن الحرب تسمح بترف تدريب طويل، حتى أن بعض الشباب التحقوا بالقتال دون تدريب، وتدربوا هناك في مواقع المواجهة. كان موقع حي السلم موقع تماس مع الإسرائيليين، ومواقع التماس تعطي المقاتلين ميزة لا تتوفر لمواقع المدينة الخلفية التي ليست على خط التماس. هذه الميزة تعفي المقاتلين في تلك المواقع من قصف الطيران الذي يقصف المناطق الداخلية لبيروت الغربية بقسوة وحقد، أشعل الطيران الإسرائيلي المدينة أكثر من مرة، وفي يوم الأحد الأسود، أُلقي عليها ٣٠٠ ألف قذيفة براً وبحراً وجواً، وتحولت بيروت حينها إلى كتلة من الدخان تعلن عن احتراق المدينة التي طالما أحبها رشيد وكان قلبه يتمزق عليها، وكان يقول لنفسه: «بيروت ما بتستاهل هذا المصير». لم يكن يستطيع أن يقول ذلك علناً، حتى لا يُعتبر متخاذلاً أو جباناً، ولم يكن رشيد يلوم الذين جبنوا، فالحرب كانت في غاية التدمير والقتل، حصار طويل، لا أحد يعرف متى ينتهي، ولا كيف، قد يودي بالمدينة وبمن فيها. كانت حرب بيروت انتظاراً تحت القذائف الإسرائيلية الشرسة التي تمزق كل شيء، البشر، والأبنية، والشوارع، والأشجار، وحتى رمال البحر. رغم ذلك مُنع الإسرائيليون بدباباتهم وطائراتهم وبوارجهم وحاملات جنودهم من التقدم على محاور المطار والمتحف وحي السلم وغيرها من مواقع التماس. لم تتوقف أصوات انفجارات الصواريخ والقذائف أو تهدأ إلا في أوقات الهدنة التي كان

ينجزها المبعوث الأميركي فيليب حبيب، وكانت هذه الأوقات فترات راحة للمقاتلين. وكان الذين يأخذون فترات إجازة داخل بيروت ممن يتمركزون في نقاط التماس يعودون في أثناء القصف فوراً إلى مواقعهم لأنها أكثر أمناً من وسط المدينة التي تخضع للقصف العشوائي. في ذلك اليوم الذي قرر فيه شاكر أن يحمل قاذفه البي سبعة، ويتقدم باتجاه الدبابات تحت جنح الظلام ليطلق صاروخه على أول دبابة إسرائيلية تواجهه، لم يخبر أحداً بذلك، ارتطم صاروخ القاذف بالدبابة، انفجر، انفجرت الدبابة، اشتعل الموقع، انتبه رشيد إلى شاكر العائد راكضاً من هناك، سقط أمام عينيه. لم يستطع رشيد البقاء مكانه، فخرج من خندقه صارخاً: «سعيد...سعيد...». بدل أن يناديه باسمه «شاكر» ترك بندقيته في الخندق وركض باتجاهه. لم يكن يعي في أي أرض يركض، ولم يكن يرى أو يسمع سيل الرصاص المطلق باتجاههم، عندما وصل إلى شاكر حمله وعاد راكضاً، لم يُصَبْ، ولم يكن يعرف أين أصيب سعيد أو شاكر؟ لم يعد يعرف من الشخص الذي يحمله، هل هو سعيد أم شاكر، أم الاثنين معاً؟! لقد أصيب شاكر إصابة خطيرة في خاصرته، أرسلوه إلى المشفى، وكان رشيد قلقاً عليه كما لم يكن قلقاً على شخص آخر. كان مرتاحاً لما فعله، وعندما لامه الشباب في الموقع على أن ما فعله «هو الجنون بعينه». قال: «وكيف يمكن نستمر بهاي الحرب من دون ما نكون مجانين، الحرب هي الجّنان بعينه». اطمئن رشيد على شاكر، وعرف أنه ما زال على قيد الحياة في اليوم التالي، رغم صعوبة وضعه. وعندما زاره بعد أيام في المشفى، كان الحديث عن الخروج من بيروت قد بدأ يسري في أوساط المقاتلين. «شكراً لإنقاذي من الموت» قال شاكر لرشيد، وسأله: «إذا طلعت من بيروت وين بدك تروح؟». لم يكن رشيد قد فكر في هذا السؤال، لأنه لم يكن يعرف إذا كان سينجو من هذه الحرب أم لا. وكان يعتقد جازماً أنه لن يخرج من هذه الحرب إلا ميتاً، لقد رأى الموت عدة مرات أمام عينيه في هذه الحرب، حتى شعر أن الموت بات رفيقه الدائم، وأنه في لحظة ما سيخطفه، برصاصة طائشة، بصاروخ موجه، بقذيفة مدفعية تصيبه في الرأس، لا يعرف، ولكنه كان يعتقد جازماً أنه لن يخرج منها حياً، أو ربما لم يكن يرغب في الخروج منها حياً. قال لشاكر: «ما بعرف، إذا كنت رح أطلع من هاي الحرب ولا لأ، منشان هيك ما فكرت إذا طلعت

من بيروت وين بدي أروح». قال شاكر: «على كل حال، إذا طلعت من هاي الحرب سالم، رح لاقيك وين ما كنت». غادر رشيد المشفى وهو مستغرب من نفسه، لأنه لم يفكر إلى أين سيخرج بعد الحرب. وفي نهاية الحرب عندما سألوه إلى أين ستذهب؟ لم يقل أنه يريد الذهاب إلى دمشق، بل قال بدون تفكير: «إلى اليمن»!

«بس أنا أنقذت حياتك ببيروت». قال رشيد قبل أن ينتهي من صب كأسي الشاي. اندهش سعيد مما يقول رشيد، فهو لم يكن يوماً في بيروت، وأمام الاندهاش الذي يراه أمامه، انفجر رشيد بالضحك. قال سعيد: «والله إنك مجنون... طول عمرك مجنون». وانفجر هو الآخر ضاحكاً.

٨

كان ضحكهما هستيرياً وأقرب إلى البكاء، حتى إن الدموع سالت من عيونهما، كان ضحك الوجع وليس ضحك الفرح، كانا ينظران إلى بعضهما وكأن كل واحد منهما خارج من المتحف الآن. عندما تأمل رشيد في شكل سعيد، كان أول ما انتبه إليه، أن عيني سعيد اللتين كانتا تشعان لمعاناً انطفأتا وفقدتا البريق، وبات يجللهما حزن عميق، لا يعرف من أين أتى سعيد صديقه الشاب الذي أحب الحياة، وكره المخيم، بكل هذا الحزن؟ ولكن ليست عيناه التي تغيّرت فحسب، فالشيب اشتعل في شعره الأسود، وأحاله إلى رماد، ولأول مرة انتبه إلى أن سعيداً يبدو أكبر من عمره على عكس السنوات الخوالي، عندما كان يظهر أصغر من سنه بسنوات. كان سعيد مغتاظاً من شعره الناعم في الأيام الخوالي، فلم يكن شعره يصلح لموضة شعر الثمانينات «النيغرو»، صحيح أنه لم يكن مشغولاً بالموضة، لكنه أحب في ذلك الوقت أن يكون شعره غير ذلك. اليوم احترق الشعر، ورسم الزمن معالمه على وجه سعيد أكثر مما ينبغي. لم يقتصر التغير الكبير على شكله الخارجي، بل كانت روح سعيد المعذبة هي المتضرر الأكبر، والمتغير الأهم، الشعلة الداخلية في سعيد التي كانت تدهش رشيد قبل ربع قرن انطفأت أيضاً، لقد بات سعيد كوماً من الركام. شعر رشيد بغصة وهو ينظر إلى صديقه الذي أحبه طوال الوقت، حتى عندما غاب عنه سنوات، هذا الشخص الذي يجلس أمامه يحمل على أكتافه أكثر مما يستطيع التحمل، ويحمل على كاهله ما ليس مطلوباً منه أن يحمله. لم يكن يحب أن يرى جذوة الحياة تنطفئ في صديق عمره وهو غير قادر على فعل شيء له. كان الحزن في عيني سعيد واضحاً، حتى وهو يضحك. كان يضحك ضحكة المذبوح، لم يكن الضحك يستطيع الدخول إلى روحه الداخلية وغسلها. عندما توقفا عن الضحك، سأله رشيد

بجدية غير معهودة فيه: «مالك سعيد؟!». كان السؤال مفاجئاً، ليس لأن سعيداً لم يتوقعه، بل لأنه عندما واجه السؤال، اكتشف أنه لا يملك إجابة له! وعندما فكر أكثر شعر أنه لا يملك إجابة على أي سؤال، وأنه يعيش فراغاً لم يشعر به من قبل!. أعاد رشيد السؤال: «مالك؟!». لم يكن رشيد يلح لأنه فضولي، بل لأنه يخاف على صديقه. تململ سعيد في مكانه وقال: «ما في شي، تعبان». قال رشيد: «بعرف إنك تعبان وما بحاجة لتقولي، باين على وجهك، أنا بسأل ليش تعبان؟». قال سعيد: «مشاغل الحياة». استفز الجواب رشيد وقال غاضباً: «سعيد قوم روح على بيتكو، شو مفكرني حمار، هذا جواب بتجاوبني إياه، إنت عارف أنا مين؟! أنا رشيد. مو عابر سبيل، حتى تتهبل عليه. أنا عارف، هي القصة نفسها، قصة كل عيد، القبر الملعون». كان سعيد يدرك أن رشيد قادر على تخمين مشكلته، وعندما كان رشيد يقول كلماته، فكر سعيد: هل حقاً مشكلتي القبر الملعون؟! مرة أخرى اكتشف أنه لا يملك جواباً على هذا السؤال. سأل رشيد: «شفت حالك بالمراية قبل ما تطلع من البيت؟! شوف شكلك صاير مثل الأشباح». قال سعيد بحيادية: «هناء بتقول هذا الحكي كمان». قال رشيد: «معها حق، ليش كل هذا؟!». نظر في عينيه مباشرة، وقال له: «اتطلع بعيوني، اتطلع منيح، مشكلتك إنك ما بدك تعيش بهذا العالم زي ما هو، بدك اتفصل عالم على قياسك، قياسه براسك». وأشار إلى رأس سعيد، «ولكن هذا العالم مانو موجود غير براسك. بصراحة هناء معها حق، إنت شبح لأنك عايش بالخيال، خيال ما حدا شايفه غيرك. الحياة ما بتوقف، وما رح توقف وتستناك. والقبر الملعون بياكلك يوم بعد يوم». صمت قليلاً وهو ينظر في عيني سعيد، وأضاف: «افهمْ، احنا كبرنا». كان رشيد يقول كلماته وسعيد يتأمله بصلعته الكبيرة التي يغطيها بطاقية بيضاء صغيرة، دون أن تستطيع احتواءها. هذا الرجل العبثي، هو ذلك الطفل والشاب العبثي، وإذا كان سعيد قد حافظ على شبه مع شكله السابق رغم مرور الزمن وحافظ على بعض الملامح من شبابه، فإن رشيداً لا يشبه نفسه على الإطلاق من ناحية الشكل الذي كان له، ولكن روحه لم يستطع أن يمسها شيء، «كان دائماً ساخراً، وسيبقى ساخراً». قال سعيد لنفسه وهو يتأمل رشيد، وقال له: «أنا شايف إني كبرت، وإنت ما كبرت». غضب رشيد من كلام سعيد، لأنه اعتبره سخرية منه، رفع الطاقية عن رأسه

بيده وأشار إلى صلعته، وقال بانفعال: «هذه الخرية شو؟! وهذا الإسطبل المحبوس فيه شو؟». وأشار إلى الدكان قبالته، وأشار إلى شكله من فوق لتحت، وقال: «هذا شكل واحد ما تغير؟! شو إنت مسطول؟!». كان سعيد مستغرباً من جدية رشيد، إذ أنه نادراً ما شاهده على هذه الشاكلة، كان دائماً شخصاً عابثاً، يتذكر أنه في طفولته كان صاحب الاقتراحات الأكثر شقاوة، فهو الذي اقترح ربط دقاقة بيت أبو محمود بخيط أسود في الليالي الظلماء، ودقوا الباب من الزقاق المقابل وعن مسافة بعيدة، وكاد الرجل يفقد عقله من الدق السريع وفتحه الباب بسرعة البرق دون أن يجد أحداً أمام الباب، وهم يجلسون في آخر الزقاق المقابل يحبسون ضحكاتهم على الرجل الضخم المحتار والمرتبك. وكان صاحب أكبر «الخبايص» في المخيم، عندما كانوا في الشتاء يحفرون الحفر الصغيرة، ويملؤونها بالطين السائل ويغطونها بالتراب الناشف، يصطادون فيها مدرّسات ومدرسي مدراس الأونروا الأنيقين الذين يبحثون عن بقعة جافة كي يتجاوزوا الأزقة الموحلة ويحافظوا على أحذيتهم نظيفة، فيقعون في الفخ. ولم يغير طبيعته عندما أصبح شاباًَ، فقد سرق أمهات الكتب لسعيد من مكتبات دمشق، وكلما أراد سعيد كتاباً، ما كان عليه سوى أن يسميه، ويتكفل رشيد بسرقته، ويأتي لسعيد ويقول: «خذ واقرأ يا فهيم». وانفعاله اليوم لا يغير من طبيعته الساخرة، ويبدو أن هذه الطبيعة هي التي جعلته قادراً على تحمل أعباء الحياة التي عاشها. كان رشيد ملجأ سعيد الدائم، حتى لو غاب عنه طويلاً، وعندما تضيق به الدنيا، كان يذهب إلى رشيد، وغرفته الخربة على السطح قديماً، وفي السنوات الأخيرة إلى دكانه التي سجن نفسه فيها بعد طول ترحال. من اليمن بعد حرب لبنان إلى الجزائر، إلى تونس، ومن ثم العودة إلى دمشق ليسجن في دكان في أزقة المخيم الخلفية. رغم الطبيعة المختلفة لكلا الرجلين، فقد كانت علاقتهما غريبة لكل من يعرفهما، كانا شخصين مختلفين في كل شيء، ولكنهما كانا دائماً يشعران أنهما الأقرب إلى بعضهما بعضاً، كانا يفهمان بعضهما رغم كل الاختلاف بطبيعتهما. اليوم عندما ينظر سعيد إلى رشيد المنفعل، يدرك أن سخرية رشيد تأتي من حزن عميق يختزنه صديق عمره من زمن سحيق، حزن لم يره طوال حياته في الشخص العابث، ولكنه يراه اليوم في رشيد الذي يكشف عن صلعته ويلوح

بطاقيته في الهواء، ويلعن الزمن الذي ولد فيه، واللحظة التي عاد فيها إلى دمشق واللحظة التي تزوج فيها عبلة وأنجب أطفالاً حمير. كان رشيد غاضباً كما لم يره سعيد غاضباً من قبل، وأمام ثورة رشيد، شعر سعيد أن أثقاله، أثقال ترفٍ، وأنه فعلاً كما يقول رشيد: «قد صنع عالمه في خياله وهرب إليه، وحمّل الآخرين مسؤولية كآبته». عندما هدأ رشيد من جديد، قال سعيد: «الظاهر معك حق كبرنا يا أبو سعيد». قال رشيد: «وهذا ما بيعني، أنه ما إلنا حق بالحياة، اسمع طول ما في إلنا يوم بهاي الحياة الزفت، بدنا نعيشه، شو ما كان الثمن، وأكثر من هيك علينا أن ننتزعه من أسنان الحياة». قال كلماته الأخيرة بلغة خطابية. كان هذا النوع من الكلام غريباً على لسان رشيد الذي تعود إلقاء النكت، أحس رشيد أن سعيد مستغرب من الأشياء التي يقولها، وقال: «ليش أنت مستغرب شو بحكي، إنت صحيح أستاذي، ولكن مو كل شي بنتعلَّمُه من الكتب، في أشياء ما بنتعلمها إلا من وحل الحياة، ومن أسوأ أنواع البشر، لا تتطلع فيني هيك، إنه العالم الواقعي يا صديقي». كان سعيد يتأمل رشيد وهو يقول كلماته، كان يكتشف رشيد جديداً، يجيد استخراج حكمة الحياة بكل سلاسة كما يجيد السخرية منها. كان في قمة دهشته عندما قال رشيد: «بتعرف شو مشكلتنا أنا وانت، مشكلتنا أنو حاولنا الهروب من سجن المخيم اللي حبسونا كشعب فيه، وبدل ما نتحرر من هذا السجن، رجعنا أنا وأنت، أنا حبست حالي بهذا الدكان السخيف، وأنت حبست حالك بالقبر السخيف. فشلنا وما قدِرْنا نهرب من سجننا، وفشلنا في تحطيمه. فشلنا في تحرير حالنا، وبقينا أسرى جريمة ما عملناها». لم يكن سعيد قادراً على قول أي كلمات، وشعر رشيد أنه لم يعد قادراً على إضافة أية كلمة أخرى بعد ما قاله. نهض سعيد عن كرسيه، نهض رشيد قبالته، مدَّ سعيد يده مصافحاً رشيد، شده إلى ناحيته وعانقه بشدة، عاد ونظر إليه من جديد وقال له: «أشوف وجهك بخير». وعندما أدار سعيد ظهره ومشى تاركاً رشيد وراءه، كانت دموعه تسيل رغماً عنه، ولا يعرف لماذا! لم يرَ رشيد دموع سعيد المنهمرة، ولكنه أحسها محبوسة في عينيه قبل أن يدير ظهره ويذهب. ولما ابتعد سعيد قليلاً، ناداه رشيد وصرخ بصوت عال: «سعيد... سعيد...». وعندما التفت سعيد للخلف، شاهد رشيد يلوح بطاقيته وكاشفاً عن صلعته ويصرخ: «بحبك يا ميت». ضحك سعيد من

بين دموعه، لوح لـه بيده، وقـال بصـوت واضـح لـم يسـمعه رشـيد الـذي أصبح بعيداً عنه: «وأنا بحبك يا مجنون».

٩

غيرت حركة رشيد الأخيرة مزاج سعيد، وأحس أن دموعه قد غسلت قلبه الذي شعر به أقل تعباً، مضى عبر أزقة المخيم مبتسماً من جنون رشيد، وقال لنفسه: «رح يظل هذا الرجّال متمسك بالطفل اللي جواته بقوة». حسده مرة أخرى على روحه التي كثيراً ما حسده عليها، وطالما تمنى أن تكون له، وفكر أنهما لا بد يكملان بعضهما بعضاً، هو النصف النكد ورشيد النصف المرح من لوحة سريالية أنتجها المخيم البائس، وما كان يستطيع أن يكون مثله. كانت ابتسامته ما تزال على وجهه عندما وصل إلى بيتهم. عندما وصل مدخل البناء، كانت شقة أمه مفتوحة. فقد كانوا، هو وأخوته وأمه جميعاً يسكنون في البناء ذاته الذي كان يوماً بيت والدهم. والدتهم تعيش في الطابق الأرضي، والأخوة الثلاثة أشادوا على مراحل بيوتهم الصغيرة في الطابقين الثاني والثالث، كانت بيوتاً صغيرة وضيقة، لكنها في النهاية كانت بيوتاً أفضل من غيرها من بيوت المخيم، أما البنات فقد تزوجن وذهبن إلى بيوت أزواجهن. لقد بقيت الأم وحيدة في المنزل الذي عمروه أول مرة. كان خيارها أن تبقى وحيدة، فلم ترضَ أن يبقى أحد أولادها معها في المنزل بعد أن تزوجوا، ليس كرهاً، إنما حتى لا يتسبب ذلك بحساسية للآخرين، وفي نهاية المطاف هم يسكنون في الطوابق التي تعلو شقتها، تشاهدهم وتشاهد أبناءهم كل يوم، ويقضون عندها أحياناً أغلب وقتهم، ويكادون لا يتركونها وحيدة. شقتها مفتوحة طوال النهار، لا تُغلق إلا في الليل عند النوم. كان المنزل يعني لها الكثير، تراه كصرح عظيم من إنجازها الشخصي، تراه معجزة، لقد انتزعته انتزاعاً، ولولاها لترك زوجها عبد الفتاح أرض مؤسسة اللاجئين التي مُنحت له للآخرين وغادر المخيم. ولربما مازالوا يتشردون في أمكنة أسوأ من المخيم. لم يكن زوجها العامل بالبناء يريد القتال من أجل أي شيء،

«خسرنا كل شيء في فلسطين، وشو اللي رح نكسبه من قطعة أرض بائسة بين البساتين؟!» كان يقول. كان حياده يقتلها، فلم تنصع له، قررت أن تأخذ بيدها ما لها ولأولادها الصغار، ومهما كان الوصف الذي ينطبق عليها، لن تترك الفرصة تفلت منها. كانت ما تزال شابة، وليس لديها سوى أبنائها نادرة وفتحية وأحمد، عندما قررت أن تقاتل من أجل حقها في حياة أقل بؤساً مما هي عليه. كانت أرض المؤسسة تعني لها الكثير، وفرصة تُخرجها من حياة بائسة عاشتها طوال السنوات السابقة من عمرها. وكانت ترد على عبد الفتاح: «صحيح خسرنا كل شيء، ولكن شو بنعمل بعمرنا الباقي، ووين يروحوا ولادنا الصغار؟!». لم يكن عبد الفتاح يملك جواباً على سؤالها، وهي لم تعد تسأله في هذا الموضوع. قاتلت بشراسة، رفعت الرفش في وجه الجار الذي حاول أن يقتطع من أرضها، وقالت له جادة وعيناها تقدح شرراً: «بدفنك هون إذا قرّبت من أرضي. اسمع بتوقفْ هناك على خط الرمل، وإلا شربت من دمك». تراجع الرجل خوفاً، لقد قرأ في عينيها جديتها وأنها قادرة على فعل ما تقول، لم يشك في ذلك. لم تكن امرأة شريرة، ولكنها كانت تعتبر تلك الأرض فرصتها للخروج من الأوحال التي تعيش فيها. فقد امتلكت من القوة ما لم تمتلكه، لا قبل، ولا بعد ذلك. ذهبت إلى أخيها الكبير فتحي وطلبت منه المال بلهجة الأمر، لا لهجة الاستجداء: «اسمع فتحي، بدك تدبر لي مصاري، كيف ما بعرف، بس ما رح أظل بلا بيت. سامع مارح أظل بلا بيت. بكرة بدك تدبر المصاري مو بعد بكرة». وهذا ما كان، دبر لها فتحي المال القليل الذي طلبته. من ذلك المال القليل، ومن بعض الليرات التي وفرتها رغم ضيق الحال، بَنَتْ أم أحمد بيتها المكون من غرفتين، وما تبقى مساحة مزروعة ومسورة بجدار تمنع أي شخص من التفكير في الاعتداء على أرضها. بوقوفها في وجه الجار في تلك التجربة، باتت مرهوبة من الجيران، رغم أنها لم تؤذ أحداً لا قبل ذلك ولا بعد ذلك. وعندما سألها أولادها بعد سنوات طويلة من تلك الحادثة: «انت كنت جادة بالتهديد اللي هددت فيه جارنا؟». كانت تجيب وعيناها تلتمعان: «كنت مستعدة أقتله وأشرب من دمه، وكنت مستعدة أموت ولا حدا يوخذ مني هاي الأرض». كانوا يستغربون هذا الموقف من والدتهم الوديعة، ويستغربونه أكثر من امرأة كانت شابة وتمتلك قدراً من الجمال، وحتى

اليوم، وهي في نهاية الستينات من عمرها ما زالت مسحة الجمال تزين وجهها. لقد كانت معركتها، وخاضتها كما يجب أن تُخاض. عندما شاهد سعيد باب والدته مفتوحاً، لم ينتظر حتى يصعد إلى بيته، ويعود مع هناء والأولاد لزيارة أمه زيارة العيد. نقر الباب بإصبعه ودخل، كانت والدته تجلس على أريكة عريضة في صدر الصالون الذي يشغل وسط البيت. قبل أن يصل إليها قال: «كل عام وإنت بخير»، وعندما وصل إليها صافحها وقَبَّلَ رأسها وهي جالسة في مكانها. منذ كان طفلاً كان يرفض تقبيل يد والده ووالدته، وكان رفضه حاداً، رغم أنه سمع كلاماً قاسياً من أجل ذلك، أحياناً تعرض للضرب، كان يرفض أن يُقبل يدي والديه، ليس لأنهما لا يستحقان ذلك، بل يستحقان تقبيل أقدامهما، ولكنه كان يرفض أن يفعل ذلك، ولم يكن يعتبر ذلك دليل حب أو احترام، إنما كان يعتبره نوعاً من الدجل. وعندما أصبح أباً ولديه أولاد رفض رفضاً قاطعاً أن يقبل أحدهم يده. المرة الوحيدة التي قبل يد أمه، كانت يوم خروجه من الأسر، دوناً عن العالم كله كان يحتاجها، قبل رأسها وقدميها ويديها وحملها كعروس. لم تكن مصدقة، كانت تحضنه، تقبله، كان يشمها، كانت تشمه، حاولت تقبيل يديه فمنعها من ذلك، وقبل يديها الاثنتين، لم يكونا قادرين على الكلام، كانا يبكيان، كما لم يبكيا، لا من قبل ولا من بعد. لم تكن مصدقة أنه مات، وعندما عاد لم تصدق أنه عاد، طوال السنوات التي غابها كانت كأنها غائبة عن الوعي، وعندما عاد استعادت وعيها وحياتها، لم يكونا قادرين على التوقف عن البكاء. لقد ضربته بقوة وبحرقة وهي تبكي، وقال لها وهو يبكي: «اذبحيني». كانت تضربه لتتأكد من أنه عاد، ومن أنه حي، وأنها لا تحلم! كان حلماً جميلاً، لكنه أقرب إلى الكابوس. لم تسمح خلال ساعات من أن يبتعد عنها ولا متراً واحداً، كانت تحضنه طوال الوقت، وعلى مدى أشهر بعد عودته، كانت تتفقده في الليل عشرات المرات وهو نائم، كان يشعر بها، يحزن عليها، كان يشعر بالذنب، لما فعله بها، كان يحتج أحياناً، ويطلب منها أن ترتاح ويقول لها: «يا أمي ما عدت ولد صغير». وكانت تقول له: «أنت ولد صغير ونص، وطول عمرك رح تبقى بنظري صغير». استسلم لعادتها بأن تتفقده دون أخوته. كانت تتفقده لتتأكد أنه عاد حقيقة من الموت، ولم يكن ما جرى لها حلماً، تتفقده مرة أخرى لتتأكد أنه لم يهرب من جديد. بعد استشهاده لم تقبل أن يُعلق

ملصقه في البيت، وكان موقفها من موته غريباً، رغم أنها لم تعترض على ملصق ابنها البكر أحمد، وعلقه الأولاد في صدر البيت اعتزازاً بأخيهم الشهيد، إلا أنها لم تقبل أن يُعلق ملصق سعيد، لم تكن مقتنعة بموته، كان هناك إحساس داخلي عندها يقول لها إن سعيداً لم يمت. لم تكن تقول ذلك، وكانت تخاف أن يقولوا إن المرأة أصابها الجنون، ورفضت بكل إصرار تعليق ملصق سعيد، وكانت تبرر موقفها بالقول: «ما شفت جثة سعيد، معناتو سعيد ما مات. شفت جثة أحمد معناتو أحمد مات». كانت تهدس في الليالي: «أحمد مات، سعيد ما مات».، حتى في أحلامها كانت تردد هذه الجملة، وسمعها زوجها عبد الفتاح تقول ذلك عشرات المرات في نومها. في لحظات عناقهما عند وصول سعيد أول مرة، ومن بين دموعها التفتت أم أحمد إلى زوجها عبد الفتاح وقالت وهي تشمّ ولدها العائد من الموت: «شفت يا عبد الفتاح، إحساسي ما خاب، ما كنت مجنونة، سعيد ما مات!». كل من كان حاضراً في لقاء الأم وابنها بكى، كانت لحظات فيها من المشاعر ما لا يحتمل، كانت دموع عبد الفتاح تسيل وهو يرى ابنه وزوجته في حالة هستيرية من عدم التصديق. أما الأخوة والأخوات والأصدقاء فقد أصابتهم حمى اللقاء الصعب وسالت دموعهم أيضاً. عندما يتذكر سعيد تلك اللحظات يشعر بقشعريرة تضرب جسده، ويتذكر أنه في سجنه قد قرر أنه إذا كان له عمر متبق ليعيشه مرة أخرى مع أمه، فلن يُقدم على إزعاجها لأي سبب من الأسباب، ولن يختلف معها، ومنذ ذلك الوقت لم يختلف معها، ولم يزعجها أبداً.

١٠

كانت أمه التي يجلس بجانبها رفيقته الأكثر حضوراً في أسره، رغم غيابها. تذكرها طوال الوقت ويومياً، وكان اتخاذه القرار بعدم الاختلاف معها إذا أُتيحت له فرصة جديدة للعيش معها في وقت من أصعب أوقات سجنه، صحيح أنه تعرض للتعذيب الجسدي القاسي، ولكن التعذيب الجسدي رغم قسوته لم يكن أسوأ أوقاته، تحمل انهيار جسده تحت وقع التعذيب، ولكنه لم يكن قادراً على تحمل انهيار روحه. في أسره أصبح له والدتان. كان سعيد واحداً من مئات الأسرى الذين جاؤوا من وراء الحدود، فلسطينيين وعرب قطعوا الحدود للقيام بعمليات فدائية على مدى سنوات. لم يكن لهؤلاء أهل داخل فلسطين أو في الضفة الغربية أو قطاع غزة، لم يكن أهلهم يستطيعون زيارتهم في سجنهم الطويل، وكان هناك من هو محكوم بعشرة مؤبدات وثمانية مؤبدات وأربعة مؤبدات وثلاثة مؤبدات، أي أنها بالمقاييس الزمنية مئتا سنة سجن، ومائة وستون سنة سجن، وثمانون سنة سجن... الخ وكانت العائلات التي من داخل فلسطين ولها أولاد معتقلون تتبنى الأسرى القادمين من خارج فلسطين بعمليات فدائية. كان الأسير من الخارج والأسير من الداخل يغدوان أخوين داخل السجن، والأم خارج السجن أم الاثنين، والأب أب الاثنين، والأخوة أخوة الاثنين! وعندما يطلب الأهل الزيارة يطلبونها للاثنين. كان علي الأسير من نابلس هو الذي آخى سعيداً في سجنه، وبذلك أصبحت أم علي الذي كان علي بكرها أماً ثانية لسعيد، وأصبحت عائلة علي هي التي تلبي طلبات سعيد وكأنها طلبات علي. كانت اللحظة الصعبة التي واجهها سعيد عندما جاءت الزيارة، وأتت له أم علي بثيابه المغسولة في بيتها. في اللحظة التي أخرج فيها سعيد الثياب المغسولة من الكيس وشم رائحة الغسيل المغسول حديثاً، وكأنه نزل الآن عن حبل الغسيل، شم رائحة أمه.

عصرت الرائحة قلبه بقوة، دفن رأسه في الغسيل وراح يبكي بقوة وحرقة. إنها أمه بين الثياب، كان يتذكرها دوماً وهذه الرائحة فعلت ما لم تفعله الذكريات. كانت حفلة الغسيل متعة سعيد الصغير، الذي ينشل الماء من البئر الموجود في منزلهم ليساعد أمه في التحضير للغسيل، لتسمح له بأن يمارس طقسه الخاص. كان يحب صوت البابور (البريموس) الذي يصدر صوتاً منتظماً، بوشيش قوي. كانت والدته تجمع ملابس الجميع طوال الأسبوع، فتصبح الكمية كبيرة، تضعها في زاوية المطبخ الذي يستخدم حماماً للاستحمام أيضاً، وتبدأ حفلة الغسيل المحببة لسعيد. كانت تضع الحلة وهي وعاء كبير لتسخين الماء على البابور الهادر بأقصى قوة. كان سعيد بعد نشله الماء يذهب إلى كوم الغسيل في زاوية المطبخ وينام عليه، سواء كان الطقس صيفاً أم شتاء، ليستمع إلى صوت البابور الذي يمنحه قشعريرة لذيذة في جسده. تطرده أمه خوفاً من أن يفعل شيئاً فتسقط عليه الحلة الكبيرة والثقيلة بمائها الذي يغلي. يعود من جديد، تعود لتطرده عدة مرات، ويعود كل مرة من جديد، معركة كرٍّ وفر حتى تبدأ غسيلها والذي عادة ما تبدأه بغسل الثياب البيضاء. كان غسيل الثياب البيضاء يحتاج في طفولة سعيد إلى ما كان يسمى «النيلة»، وهو عبارة عن مكعب أزرق صغير يذاب في الماء حتى يجعل الثياب البيضاء أكثر بياضاً وزهواً. كان ذوبان المكعب الأزرق في الماء يسحر سعيد بموجاته الزرقاء داخل لجن الغسيل. كان يرجو أمه أن يذيبه هو، وكانت تسمح له بفعل ذلك في بعض الأوقات التي لم تكن مستعجلة فيها، وكانت كذلك أغلب الأوقات، كان سعيد يستفزها لأنه يذيب مكعب النيلة ببطء شديد حتى لا ينتهي بسرعة. بعد إذابة النيلة في الماء يختفي سعيد من المنزل، لأنه لم يكن يحب أن يحمل الغسيل إلى الحبال لأخواته البنات، ويكون بذلك قد انتهى من الجزء الأول من طقس الغسيل الخاص به. الجزء الثاني من طقسه كان عندما يُجمع الغسيل عن الحبال، ويُوضع في الغرفة قبل طيه، وعندما كان سعيد يشاهد الغسيل مجموعاً فوق بعضه، كان يركض وينبطح عليه ويتنشقه بقوة، ويشم رائحة الغسيل التي يحبها، تلك الرائحة كان يعتبرها رائحة أمه، وهي الرائحة ذاتها التي تحملها الملابس المغسولة التي جلبتها أم علي لسعيد، الابن الذي ليس من بطنها.

سألت أمه حالما جلس إلى جانبها وهي تنظر اليه نظرات حانية: «وين كنت، الدنيا بكير شو اللي طلعك؟!». نظر إليها وقد فهم تلميحها وقال: «حسيت حالي مضايق شوي، طلعت قلت بغير جو على الصبح». تغيرت نظرتها إليه، هرب بعيونه منها، قالت: «الله لا يحسسك بالضيق لا اليوم ولا غيره... سمعت في شي تكسّر عندكو الصبح بكير، هو عندكو كان التكسير؟». استمر سعيد في الهروب من عيني والدته وقال: «هو صحن واحد سقط من إيد هناء وانكسر بالمجلى». كان يعرف أنها لم تصدق كلماته فما يفصلهم عنها يجعلها تميز بين سقوط صحن، وبين أوانٍ تتحطم بقوة، كان يدرك أنها تعرف سبب صوت التحطم الذي أتى من شقتهم. قالت: «هو نفس الموضوع مو هيك؟». هز رأسه موافقاً أمه. فجأة، خسر تعديل المزاج كله الذي أدخله رشيد إلى نفسه قبل وقت قصير. تجهم سعيد، لاحظت أمه ذلك، كانا طوال سنوات عدة قد تحدثا في الموضوع دون أن تقسو عليه، ودون أن يصرخ عليها، كانت تطلب منه أن يكف عن إزعاج زوجته بهذه الطريقة، لم تكن أمه على وفاق مع هناء إلا في هذا الموضوع، وطالما قالت له: «معها الحق، مو لازم الرجّال يذكر مرته بموته على طول، لازم يذكرها بأنو حي وموجود». كان يوافق على ما تقول، لكنه في العيد التالي يذهب إلى هناك. في هذه المرة لم تكن أمه راغبة في قول أي شيء حول هذا الموضوع. قالت له: «الله يهدي سرّك يا ابني». وأضافت حتى تخرج من الموضوع: «تشرب قهوة؟». قال: «أنا بعملها». قالت: «بنعملها سوى». مدت يدها باتجاهه، أعطاها يده، استندت عليها، وذهبا ببطء إلى المطبخ، ووضع سعيد الماء في غلاية القهوة، ووضعها على رأس من رؤوس الغاز الموجود في زاوية المطبخ. نظر إلى أمه التي وجدها تتابعه بكل تفصيل، قال: «شو مالك؟». قالت: «ما في شي، بفكر بحال الدنيا». كانت تنظر إلى سعيد وتفكر كيف سرقها الزمن دون أن تنتبه، فها هو العمر مضى بسرعة غريبة، ولم يعد لها اليوم مع أمراضها، ضعف العضلة القلبية، وضغط الدم، والسكري، سوى أن تتأمل حياتها. وزاد من هذا الإحساس وفاة زوجها قبل سنوات. كانت تنظر إلى سعيد وتتذكر طفولته. ابتسمت دونما سبب، فعاد وسألها: «شو مالك؟». قالت: «ما في شي، تذكرت طفولتك، كل ما بشوف واحد منكو بتذكر طفولته، ما رح تكبروا

بنظري أبداً». عندما ابتسمت تذكرت سعيد وهو في أشهره الأولى، لقد كان طفلاً جميلاً، وكانت جارتهم السمراء الغامقة أم بسام لم تشاهد سعيد قبل أن يبلغ الأشهر الستة من عمره حينها. فقد كانت أم أحمد فقدت ابناً لها أكبر من سعيد بحوالي العام والنصف بسبب نظرة أم بسام الحاسدة التي تكسر الجرة، عندما نظرت للطفل وقالت: «ولد حلو يا أم أحمد». لم يمضِ المساء حتى كان الولد قد أعياه المرض، وتوفى قبل الصباح. لذلك، عندما ولد سعيد حرصت أمه على ألا تشاهده أم بسام، ولكن الصدفة كانت أقوى من حرص أم أحمد على ولدها. وعندما شاهدت أم بسام سعيداً، قالت لها: «ولد حلو، امتى خلفتيه يا أم أحمد؟!». عندما سمعت أم أحمد كلمات أم بسام، انتفض جسدها، وأصابتها قشعريرة الخوف التي ضربت ظهرها، وشعرت أنها تتصبب عرقاً بارداً. لم يأتِ المساء، حتى كان سعيد يعاني من درجة حرارة عالية لا تعرف لها سبب. في الليل لم تعد تحتمل الوضع، كان سعيد يغلي من الحرارة، عندها أيقظت أبو أحمد وقالت له: «قوم بدنا نروح على المستشفى». قال عبد الفتاح بعيون ناعسة: «الصباح رباح». قالت بلهجة آمرة: «رح نروح، يعني رح نروح، الولد عبموت، وما رح أخسر سعيد، زي ما خسرت نادر». نهض أبو أحمد من فرشته بتثاقل وعلى مضض. لم يصحُ من نومه تماماً إلا عندما لفحه هواء كانون البارد بعد فتحه باب غرفته. لفت أم أحمد سعيد بحرام صوفي ثقيل، وغاصا في أوحال المخيم، كان الطريق يبدو لأم أحمد طويلاً جداً، والمشفى بعيد، وسعيد يرتجف بين يديها، تشعر به رغم سماكة الحرام الصوفي. كان المطر يغرقهم، في ذلك اليوم كرهت المطر للمرة الأولى في حياتها، وطوال عمرها كانت تحب المطر، ولكنها في تلك الليلة كرهته كثيراً. لقد خفت وطأة المطر عندما تجاوزا أوحال المخيم وصولاً لمنطقة الميدان التي كانت في ذلك الوقت الحي الأخير في جنوب دمشق. كانت طرقه معبدة، وهو ما جعل سيرهم أكثر سهولة. لقد طال مشيهم في ليل ذلك اليوم أكثر من ساعة للوصول إلى مشفى دمشق الحكومي. وعندما وصلا كان قد أصابها الإنهاك. وضعت أم أحمد سعيداً على طاولة المعاينة في غرفة الإسعاف، نزعت عنه ملابسه حتى يتمكن الطبيب من معاينته، كان سعيد يختلج، فحصه الطبيب، وقال: «ليش تأخرتو لهلق؟». قالت أم أحمد: «مشوارنا بعيد يا دكتور». نظر الطبيب إلى

أقدامهم بأحذيتها الموحلة، فعرف أنهم جاؤوا من مكان بعيد وبائس، لم يسألهم، قال كلمات للممرضة التي معه لم يسمعوها. ذهبت بعض الوقت وعادت تحمل إبرة جاهزة، أعطاها الطبيب لسعيد. عرف الطبيب من إرهاق الزوجين وبللهم أنهما لا يستطيعان العودة إلى منزلهم البعيد في هذا الجو العاصف، وفي وقت لم تكن فيه مواصلات في دمشق في تلك السنوات وفي ذلك الوقت من الليل. قال الطبيب للممرضة خذيهم إلى غرفة وفي الصباح يذهبون. نظر إلى الأم وقال: «حطي على رأسه كمادات مي باردة حتى تنزل حرارته». قالت له: «بس الدنيا برد يا دكتور!». قال الطبيب: «هذا ما مهم، سوي اللي بقلك عليه، لو ظل الطفل للصبح لكان راح فيها». كان الطبيب قد كتب وصفة طبية وقال للممرضة: «جيبيها من صيدلية المستشفى». خرجا مع الممرضة التي قادتهم إلى الغرفة التي وضعوا فيها سعيد، بقيت أم أحمد طوال الليل تضع كمادات الماء البارد على رأسه، حتى خفت حرارته. في الصباح مرَّ الطبيب على غرفة سعيد، وكانت حرارته قد انخفضت، قال للوالدين: «فيكو تروحوا على بيتكو».

تذكرت أم أحمد مرض سعيد الذي سببته عين أم بسام الحاسدة، نظرت إليه وهو يضع البن داخل الغلاية التي أخذ ماؤها بالغليان، قالت: «نجيت من الموت مرتين!».

١١

لم يفهم سعيد ما قصدته أمه، ولم يكن يعرف إذا كان هو المقصود بكلامها، أم تقصد نفسها، لأنها هي نفسها نجت من الموت مرتين، روتهما لسعيد أكثر من مرة. كان يذكرهما تماماً لأنهما وقعتا ببساطة في طفولتها في فلسطين، وكل شيء كان يُروى له عن فلسطين كان يعلق بذهنه ويتذكره كأنه حدث معه، رغم أنه لم يكن قد وُلِدَ بعد. كانت المرة الأولى قبل الخروج من فلسطين بحوالي العامين، كانت وقتها طفلة تبلغ من العمر سبع سنوات. هي وأخوها الأكبر عبد الله الذي يكبرها بعام واحد وطفل آخر يماثله في العمر، كان أهله قد أتوا من حيفا في زيارة إلى بلدتهم يقضون فيها بضعة أيام، كانوا قد غادروا البلدة ليستقروا في حيفا منذ وقت ليس بطويل، يعودون إلى البلدة بين فترة وأخرى، فبلدتهم لا تبعد عن حيفا جنوباً سوى بضعة كيلو مترات. كان الثلاثة قد وجدوا كتلة حديدية تشبه العلبة، لم يعرفوا ما هي، حاولوا فتحها بكل الطرق دون جدوى. كانت مديحة، التي صارت فيما بعد أم أحمد أكثر فضولاًَ من الطفلين لمعرفة ما هو موجود داخل هذه العلبة الحديدية اللعينة، كانت ثلاثة رؤوس طوال الوقت فوق هذه العلبة، وكل محاولات إلقائها على الأرض وعلى الصخور لم يُجدِ نفعاً في فتحها. مع الفشل المستمر أخذ فضول مديحة يخبو، بينما الطفلان الآخران يزدادان إصراراً وعناداً على فتح تلك العلبة اللعينة، بعد أكثر من ساعة من المحاولات الفاشلة كانت مديحة قد فقدت فضولها تماماً، لمعرفة ما في داخل تلك العلبة، واعتبرت أن فتحها مستحيل. أدارت ظهرها وتركت الطفلين العنيدين وحدهما يحاولان فتح العلبة اللعينة. ابتعدت حوالي العشرين متراً، نظرت خلفها شاهدت أخاها يضع العلبة على حرفها بشكل طولي على السور الحجري لجيرانهم، وكان الطفل القادم من حيفا يحمل حجراً كبيراً ويهوي به على العلبة عدة مرات.

أدارت ظهرها من جديد وقالت لنفسها: «مجانين». وعادت للسير باتجاه بيتهم. في تلك اللحظة دوى انفجار كبير. أصابها الانفجار بالرعب الشديد، أدارت وجهها إلى حيث كان الطفلان، كانا قد سقطا على جانب السور الحجري مضرجين بدمائهما، دارت الأرض بها، خانتها قدماها وغابت عن الوعي، لم تدرك ما جرى، ولم تستطع الكلام لفترة طويلة بعد ذلك، وعندما أيقظوها من غيبوبتها، وحاولوا أن يفهموا منها ما حدث، كانت قد أصيبت بالبكم، ولم تكن قادرة على النطق بأي كلمة. وبقيت على هذه الحالة عدة أيام، عيونها زائغة لا ترى ما تنظر إليه، ولا ترد على نداء، ولا تقول أية كلمة. اعتقد أهلها أنها أصيبت بالبكم ولم تعد تسمع. عندما راجعوا الطبيب اليهودي يوسف شلهوب في حيفا حدثوه عما جرى معها، قال لهم، إنها صدمة نفسية قوية، تحتاج إلى الراحة، ولا تسألوها عن الموضوع. لم يفهم أهلها ما الذي تعنيه «الصدمة النفسية»، ولكنهم كانوا يثقون في كفاءة الطبيب فالتزموا تعليماته ووصفته الطبية، وبالفعل بدأت مديحة تخرج من صدمتها ولكنها احتاجت أشهراً حتى تجاوزت رعبها وخوفها واستعادت صوتها. لم تستطع أن تروي ما جرى إلا بعد سنوات طويلة من وقوع الحادث، وكانت قد مر على رأسها ما مر من أحداث، وكان عالمها قد أصابه الانقلاب الكبير، تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تعيش حياة بسيطة على سفوح جبل الكرمل الساحر، وجدت نفسها بين ليلة وضحاها وهي ما تزال طفلة أيضاً مشردة وتتخبط في أوحال مخيمات اللاجئين، بين نابلس وعمان ودمشق. لم تكن المرة الثانية التي نجت فيها مديحة من الموت المحقق بعيدة عن الأولى، فبعد سنتين من تلك الحادثة كانت سنة التهجير التي اقتلعتهم من أراضيهم. في تلك الرحلة الليلية التي مشتها مديحة وهي نصف نائمة، عندما أيقظتها أمها لأنهم سوف يغادرون البلدة بسبب الحرب، كانت أمها قد أعدت بعض الأغراض على عجل، وتركت ما تبقى، لأن والدها قال لأمها: «حيفا سقطت، واليهود بيعتدوا على النسوان وبدبحوا بالبشر، لازم نمشي من البلد». استفاقت مديحة في الطريق على صوت الانفجارات التي كانت تدوي في أنحاء فلسطين كلها، إنها الحرب. أعادت الانفجارات الذكرى الطازجة عند مديحة، صورة الطفلين اللذين يسبحان بدمهما. عادت إلى ارتجافاتها السابقة، والرحلة من حيفا إلى نابلس عبر الجموع الهاربة

كانت رحلة في غاية الشقاء للطفلة التي عادت لها الحمى، وعاد لها البكم، وللأم التي تعتني بخمسة أولاد منهم واحدة مريضة. عندما وصلوا إلى نابلس كانوا قد فقدوا تحت وقع الخوف والعجلة أغلب أغراضهم التي أعدوها على عجل. وصلت مديحة إلى نابلس بصورة أقرب إلى الشبح الذي يرتجف، حرارتها مرتفعة، عيونها زائغة، وهي لا تسمع، ولا تستطيع الوقوف. ندبت أمها حظها، لعودة ابنتها إلى حالتها السابقة في وقت غير مناسب. عندما وصلوا إلى نابلس لم تكن الأم تملك غطاء لتغطية أولادها، وعندما قاتلت للحصول على زاوية صغيرة في خيمة بائسة، كانت مديحة قد سقطت من الإعياء الشديد. مددتها في الخيمة، ولأنها لا تملك ما تغطيها به، مزقت جزءاً من طرف الخيمة وغطت ابنتها التي ترتجف. كانت خائفة عليها ولا تعرف ما الذي تستطيع أن تفعله لها. كان الأب قد عاد من جديد إلى البلدة ليأتي ببعض الحاجات، وليبيع بعض الأشياء إن استطاع ذلك، ليعوض ما فقدوه في الطريق ولتساعدهم على الأيام الصعبة القادمة. أصبحت الأم وحيدة ومفلسة وقلقة وخائفة مع أولادها الخمسة، بينهم رضيع ومريضة، لم تكن قادرة على ضبطهم، وكان حسام الطفل الكبير ذي الاثني عشر عاماً هو الوحيد الذي يسمع كلام أمه، ويفهم إلى حدٍ ما ما يجري، يساعدها وهو حزين ومرهق. أما الأخت التي تليه مباشرة مديحة فهي غائبة عن العالم، أما الصغار فكانوا يبكون من التعب والجوع طوال الوقت. عندما ذهب تجمع اللاجئين للحصول على بعض الطعام من زاوية الساحة التي أقيمت فيها الخيم على عجل بطريقة بائسة، كان طفلان صغيران يتعلقان بثوب الأم وتحمل رضيعاً على يدها. في ذات الوقت كانت عربة الماء التي يجرها حصان قد وصلت جانب الخيمة التي تنام فيها مديحة المنهكة من مرضها. في ذلك المكان ضرب سائق العربة الحصان ليحثه على السير، لكن الحصان جفل، وأخذ يقفز بطريقة جامحة، انقطع سرج الحصان وتحرر من العربة، اصطدم بالخيمة التي تنام فيها مديحة فأوقعها عليها، وأخذ يقفز فوق الخيمة المنهارة. وعندما شاهدت الأم الحصان قد هدم الخيمة وأخذ يقفز فوقها، جن جنونها، ناولت رضيعها لابنها الكبير بشكل عفوي، وتخلصت من الطفلين الصغيرين وركضت كالمجنونة باتجاه الحصان الذي يقفز فوق ابنتها. لم يكن أحد قادراً على الاقتراب من الحصان

الجامح، ولكن الأم المفجوعة، لم تستطع الانتظار، هجمت على الحصان الجامح فاتحة صدرها رافعة يديها، وقف الحصان على قدميه الخلفيتين في مواجهة الأم، لم تتراجع، بل تراجع الحصان عن الخيمة وأخذ يركض بعيداً. رفعت الأم الخيمة المنهارة لترى جثة الطفلة المريضة التي سحقتها حوافر الحصان الجامح. جلست إلى جانبها، ودهشت لرؤية عيني مديحة تتحركان، تفقدت جسدها، لتعرف ما أصابها، وازدادت دهشتها عندما تأكدت أن الحصان الجامح لم يمس مديحة على الإطلاق، احتضنتها بقوة وانفجرت في بكاء قهري. لم يكن أحد ممن شاهد الحصان الجامح يقتلع الخيمة ويقفز عليها، يعتقد أن تلك الطفلة الممددة هناك غير القادرة على الحراك، يمكن أن تنجو، لأن الطفلة لم تأت بأي حركة، ولم تصدر أي صوت، حتى أن أحداً غير أمها لم يكن يعرف أن هناك أحد في الخيمة. روت الأم لمديحة ما جرى في تلك اللحظات الرهيبة، ولكن مديحة لم تذكر مما جرى، سوى صوت دبيب يأتيها من بعيد وهي تقبع تحت الخيمة المنهارة غير قادرة على الحركة. كل من شاهد الحادثة اعتبر أن معجزة إلهية وحدها أنقذت الطفلة من حوافر الحصان الجامح.

أطفأ سعيد الغاز تحت القهوة، ووضع فنجانين على صينية وحملها. مد يده إلى أمه التي استندت إليها من جديد عائدين إلى الصالون. كان يفكر في دلالة المفارقة أن ينجو هو مرتين من موت محقق، وأن تنجو أمه مرتين من موت محقق أيضاً. كانت أم أحمد تراقب ابنها وهو يصنع القهوة، تتأمل وجهه الحزين، وتسأل نفسها: «ليش سعيد أكثر واحد حزين بين ولادي؟». أرادت أن تسأله، ولكنها تراجعت في آخر لحظة. عندما عادا إلى الصالون يسيران جانب بعضهما، قالت له: «الدنيا حلوة، وما بتستاهل كل هذا الحزن!».

١٢

«الدنيا حلوة، بس مو لأمثالنا» رد سعيد على كلام أمه وهو يصب القهوة. نظر إليها من جديد وأضاف: «لحتى نعيش سعداء في هاي الدنيا، لازم نكون بلا إحساس». قال ذلك وشعر أنه يقول كلاماً متكلفاً مأخوذاً من كتب مهمتها أن تطلق الأحكام العميقة، ولكنها تأتي في غير محلها. شعر أنه لا يستطيع أن يقول كلاماً مدرسياً في وجه أمه التي تعلمت من قسوة الحياة أشياء كثيرة لا يستطيع تعلمها من صفحات الكتب. حاول التخفيف من كلامه وقال: «راحت عليّ، ما عاد في شي بيستاهل العيش». ضحكت الأم ونظرت إلى سعيد نظرة حانية. انتبهت إلى ارتباكه وهروبه بعينيه منها لأنه اعتقد أنه أخطأ بحق أمه بالأقوال التعليمية التي أطلقها بكلماته. قالت له: «بتحكي زي العجايز وبتخجل زي الأطفال». أدهشه تشبيه أمه، وشعر أن ما تقوله ينطبق عليه تماماً، يشعر داخله رجلاً هرماً ينتظر موته مستعجلاً الخلاص، وهذا ما يجعله يتحدث اللغة السوداوية العجائزية أغلب الوقت. ولكنه في الوقت ذاته يشعر أن الطفل داخله الذي كان يستلقي على الغسيل النظيف ليشم رائحته ما زال يعيش بقوة في داخله أيضاً. فكر وأعاد صياغة تشبيه أمه وقال لنفسه: «يبدو أنني الطفل الهرم». جاءت كلماته أضعف كثيراً من الكلمات التي قالتها أمه. سألها: «من وين بتجيبي هذا الكلام؟». استغربت أمه ما يقول. وقالت: «أي كلام بتقصد؟». اعتقدت أنه يسألها عن كلام غير لائق قالته. كانت امرأة تقول كلامها ببساطة، لا تؤلفه ولا تصوغه في صياغات مؤثرة. كانت تقوله كما يخطر ببالها، ومهما قالت كانت تعتبره كلاماً عادياً. ولكنها طوال حياتها كانت تُدهش زوجها وأولادها بالأحكام التي تطلقها ببساطة، بل إنها تعتبرها بسيطة، لكنها تتركهم مشدوهين من عمق ما تقول. قال سعيد: «أبوي كان بيقول، لو أمك اتعلمت كانت خربت

الدنيا». ضحكت أم أحمد من أعماق قلبها وقالت: «الدنيا خربانة من دون واسطتي». تذكرت زوجها السلبي في كل شيء ما عدا عمله. كان قد ألقى على عاتقها المسؤوليات كلها، واعتبر أن مهمته تقتصر على أن يأتي بالمال إلى البيت، وكفى المؤمنين شر القتال. حاولت كثيراً أن تجعله أكثر تدخلاً في حياة أولاده، لكنها فشلت في ذلك، وكلما حاولت أكثر كان يقضي وقتاً أطول في عمله خارج المنزل. كان يخرج في الصباح قبل أن يصحو الأولاد ولا يعود إلا في الليل بعد نومهم، حتى أنهم يكادون لا يجتمعون معه سوى في الأعياد والمناسبات الهامة. قضى أبو أحمد حياته هارباً من المخيم، حتى في الأيام التي لم يكن لديه فيها عمل، كان يصرّ على الاستمرار في عادة الخروج من الصباح إلى المساء. لم يكن يقعده في البيت سوى المرض، وكان يعود إلى الهروب قبل أن يشفى تماماً. لم يكن هروبه بسبب قسوته وأنانيته، بل كان بسبب ضعفه وحساسيته التي لم يحاول إظهارها أمام أولاده حتى عندما كبروا. على فراش موته اكتشفوا كم كان والدهم هشاً ورقيقاً، في الوقت الذي اعتقدوا طوال سنوات عمرهم، أن والدهم قاس وقوي وجبار. ولكنه تكشف عن رجل يملك من الحساسية ما يجعله غير قادر على تحمل أي قسوة، كان يهرب منهم لأنه يحبهم، ولا يعرف كيف يعبر لهم عن هذا الحب. كان موجوداً وغير موجود، كانت أم أحمد تصور زوجها عبد الفتاح للأولاد رمزاً للقوة، فكانوا يهابونه بسبب تلك الصورة التي رسمتها أمهم، لا بسبب تعاملهم المباشر معه، وكانت تحيل قراراتها إلى الدهم، الذي لا يستطيع أي من الأولاد مراجعته، كانت تقول لهم: «أبوكم وافق»، «أبوكم ما وافق»، وكانوا يتوسطونها لديه لتلبية حاجاتهم، وبقيت تحيل كل قراراتها إليه، رغم أنها كانت مفوّضة في كل شيء، وصاحبة القرارات جميعها، ولم تكن ترجع له، وعندما كانت تفعل ذلك كان يقول لها: «اعملي شو ما بدك». لم يتخذ يوماً موقفاً، لا سلبياً ولا ايجابياً وبقيت مواقفه طوال الوقت هروبية. عندما تزوج عبد الفتاح من مديحة، كانت في السادسة عشرة من عمرها، وانتقلت من العيش مع أهلها في بيت طيني في حي الأمين، إلى العيش في بيت طيني على بعد أمتار من بيت أهلها في بيت أهل زوجها. قال والدها: «تزوجي». قالت: «انتو بدكو هيك؟». قال: «نعم». فتزوجت

عبد الفتاح. وهو قالوا له: «اخترنالك مديحة عروساً». فقال: «مثل ما بدكم». لم يرفض ولم يقبل، كان شاباً قد أصابته حرب التهجير باللامبالاة. كان يهرب من كل شيء ليضع طاقته في عمله. منذ خرج من فلسطين مع أهله وكان عمره ثلاثة عشر عاماً لم يعد هناك شيء له معنى في حياته، كانت حياة التهجير في المخيمات الموحلة والبائسة التي عاشها ومثله مئات الآلاف كفيلة بالقضاء على أي أمل في الهروب من الأوحال التي علقت في أرواح المنكوبين أكثر مما علقت بملابسهم وأجسادهم. لم يكن هروب عبد الفتاح الشكل الوحيد للهروب، فهناك من أصابهم الجنون لأنهم لم يستطيعوا تحمل انهيار حياتهم بالطريقة السريعة التي وجدوا أنفسهم عليها. بشر ميسورون يشربون القهوة الصباحية في منازلهم الجميلة في المدن الفلسطينية، يتركون قهوتهم الصباحية التي لم يكملوا شربها على طاولات منازلهم ويغادرون بملابس النوم، ليعودوا إلى منازلهم بعد ساعات. ولكنهم بدل أن يعودوا إلى منازلهم، يجدون أنفسهم يغوصون في أوحال مخيمات البؤس في دول أخرى. وفي حالات أخرى كان هناك العشرات الذين أدمنوا الشرب في حانات دمشق، يشربون كؤوسهم، لينهوا سكرتهم بموجة من البكاء الحارق على وطن ضيعوه في رمشة عين، وليترنحوا بقية الليل في شوارع دمشق. عائلات تشظت في عدة بلدان، أخوة وأبناء، كل منهم وجد نفسه في مخيم يعود لبلد مختلف. أولاد فُقدت في الطريق إلى المنافي. أرواح تمزقت في العري الذي وقفوه بإذلال أمام مراكز المساعدة. كانت نظرة واحدة على الأماكن التي يعيشون فيها كافية لأن تقول كل شيء دفعة واحدة. كانت المفارقة أنهم لم يصابوا بالجنون، لأن كل شيء في تلك الأوقات العصيبة كان يدفع إلى الجنون. كانت أم أحمد وزوجها من جيل ضربتهم النكبة بين الطفولة والمراهقة، فلم يعيشوا لا هذه ولا تلك، كانت وجوههم حزينة مثل كل أقرانهم في مخيمات البؤس، ومع مرور السنين بدت حياة المخيم وكأنها ستدوم إلى الأبد. انتظروا في الأشهر الأولى من الخروج العودة إلى بيوتهم، ولكن الأمل بهذه العودة أصبح يبتعد مع الزمن، وبات عليهم أن يحاولوا العيش في الأماكن التي وجدوا أنفسهم فيها صدفة وبغير إرادتهم، وأن يرتبوا أوضاعهم في مخيمات البؤس وأن يحسّنوا منها. تذكرت أم أحمد

طفولتها ومراهقتها وأيام زواجها الأولى عندما سألها سعيد: «من وين بتجيبي هذا الكلام». استغربت قدرتها وقدرة الناس الذين مروا في درب الآلام من فلسطين إلى المنافي على تحمل الألم والقسوة. تذكرت المسيرة كلها من جبل الكرمل عبر نابلس عبر عمان إلى أوحال دمشق التي لم تشعر يوماً أنها تنتمي إليها، بل ظلت طوال حياتها معلقة هناك على السور الحجري على المنزل القابع في سفوح الكرمل! كان البيت يكبر مع الوقت، ويتحول من بيت حجري متواضع إلى قصر، لقد كان قصر أحلامها، أحلامها التي تحولت إلى كوابيس بعد أن غادرته. ومنذ ذلك الوقت لم تأتها الأحلام السعيدة ولا مرة. «بجيب كلامي من مشوار مشيته وما بتمناه لحدا». قالت أم أحمد رداً على سؤال سعيد الذي ينظر إلى أمه بإعجاب. فقد كان دوماً معجباً بها، حتى في الأوقات التي كانت تستفزه. عندما كانت تسأل رفاقه في المدرسة عندما يأتون للسؤال عليه: «سعيد بدخن؟». كان السؤال يربك أصدقاءه، كانت تقول كلامها وكأنها واثقة أن سعيد يدخن، ولكنه لم يكن كذلك على الإطلاق. كان يشعر أن هناك حبلاً خاصاً يربط بينه وبين أمه، يجعل علاقته بها مختلفة عن كل أخوته، شيء يعجز عن تفسيره ولكنه يشعر به بقوة.

وضع سعيد فنجاني القهوة على الصينية وأعادها إلى المطبخ، عاد إلى أمه سألها: «بدك شي؟». قالت: «سلامتك، رايح؟». قال: «برجع بعد شوي انا وهناء والولاد». قالت: «الله يوفقك، دير بالك على حالك». خرج سعيد من باب شقة أمه وهو يسمع تمتمات دعائها له.

١٣

عندما عاد سعيد إلى منزله مرة أخرى وفتح الباب كان الولدان قد استيقظا، وهو ما خفف من وقع اللقاء من جديد مع هناء التي نظرت إليه نظرة حانقة حال دخوله إلى الصالون، وسرعان ما خرجت إلى المطبخ. أسرع الولدان إلى والدهما يقبلانه ويهنئانه قائلان: «كل عام وأنت بخير». رد عليهما: «وأنتم بخير». لقد رفض الولدان الفطور دون والدهم، رغم إصرار أمهم عليهم، لأن والدهم هذه المرة خرج ويمكن أن يتأخر كما قالت، ولكنهما أصرّا على انتظاره، ولذلك أجلت هناء الفطور إلى حين عودة سعيد. كان يتملكها إحساس غريب أنه لن يعود مبكراً هذا اليوم، حتى لو كان الوقت، وقت عيد. فهو كثيراً ما يضرب عرض الحائط بالكثير من الالتزامات الاجتماعية دون أن يشعر بأي حرج، وليس غريباً أن يفعل ذلك في العيد، خاصة وأنها تعرف أن سعيد يمقت العيد بشدة. خيب ظنها هذه المرة وعاد مبكراً. كانت أحياناً كثيرة تشعر أنه يفتعل خلافاً معها حتى يهرب من البيت لوقت طويل، كان فيه شيء ما يشبه والده الذي قضى حياته هارباً من منزله. استغربت هناء أن يعود سعيد هذه المرة بعد وقت قصير من خروجه على غير المعتاد، إنها ليست عادته؟! ولكنها قررت ألا تصطدم معه اليوم، وهذا القرار لم يغير من مزاجها السيئ الذي سببه سعيد بالزيارة المشؤومة. لم يذهب سعيد وراءها إلى المطبخ تجنباً للأسوأ. أدار حديثاً مع ولديه حول مخططات أول يوم عيد. كان الولدان يحسبان المال الذي سيجمعانه في حال أعطاهم كل من أعمامهما وأخوالهما وجدهما وجدتهما عيديتهما، كانا يخرجان بمبلغ كبير، ولكنهما يعودان ليخفضا من توقعاتهما المالية ويحسبانها من جديد. كانت أصوات الولدين السعيدة تصل إلى مسامع هناء في المطبخ وهي تعد فطور العيد، وهو الفطور الوحيد في السنة الذي تكون اللحمة المكون الرئيسي له. أعادت

اللحمة الموضوعة على النار هناء إلى طفولتها، فهي اليوم تقوم بقلي لحمة العيد، في الوقت الذي كانت في صغرها لا تقترب من لحمة العيد، وبقيت كذلك حتى زواجها. كانت مفاجأتها بأضحية العيد تُذبح أمام بنايتهم وهي في الثامنة من عمرها، قد تسببت لها برعب شديد، ومنذ ذلك الوقت باتت تخاف صباح العيد. كان والدها يصرُّ في كل عيد على ذبح خروف، ليس في عيد الأضحى فقط، بل وفي عيد الفطر كذلك. في ذلك اليوم كانت نازلة درج البناية لتقوم بمعايدة والدها الذي نزل لمعرفة ما يجري مع اللحام الذي يذبح خاروف العيد. كانت في غاية السعادة، نزلت الدرج قافزة بقدميها الاثنتين بشكل راقص وماسكة بدرازين الدرج، وتغني: «اليوم العيد وبنعيد وبنذبح بقرة السيد...». وما إن خرجت من مدخل البناية حتى واجهها خروف العيد ينفر دماً وينتفض بين يدي اللحام محاولاً خلاصاً غير ممكن. تجمدت بأرضها، وأخذت بالصراخ الهستيري، فاتحة عينيها إلى أقصاها ومرتجفة من الرعب. التفت الأب عند سماع صراخ ابنته الجنوني، ركض نحوها، حملها بين ذراعيه وصعد بها إلى البيت، ناولها إلى أمها التي تساءلت عن سبب رعب هناء، فقال لها: «انه دم الخروف». بقيت زمناً ترتجف بين ذراعي أمها، وقضت ذلك العيد طريحة الفراش، ومنذ ذلك العيد كف والدها عن ذبح خروف العيد أمام البناية. كانت هناء أصغر أولاده الثلاثة، وكانت الأسرة كلها متعلقة بها. والدها فؤاد خرج من فلسطين شاباً في العشرين من عمره، كان موظفاً في الإدارة المحلية في السراي الكبير الواقع في الساحة العامة لمدينة يافا، وكان يسكن في حي النزهة، الحي الجميل في يافا. وقد حصل على وظيفته بعد أن أنهى دراسته في الثانوية الأميرية في يافا. كان شاباً وسيماً وأنيقاً، وكان نموذجاً للطبقة الميسورة في فلسطين، وقد نجا بأعجوبة من التفجير الذي أصاب السراي الكبير مكان عمله في أوائل العام ١٩٤٨، عندما حولت عبوة مفخخة السراي إلى ركام. فقد كان فؤاد يقبع في البيت بسبب كسر في ساقه، تسبب به تعثره على درج السراي، ما أجبره على التزام البيت لشهرين، وعندما شفي كان مكان عمله قد تحول إلى ركام. كانت حياته مريحة عندما داهمته النكبة، وطرد من مدينته التي كان يحبها ويحب بحرها ومقاهيها. فجأة، وجد نفسه وأمه العجوز في دمشق، بينما إخوته الأكبر خرجوا باتجاه مصر لأنهم كانوا يعملون في التجارة، وكانت لهم

بعض الأعمال في القاهرة. استطاع فؤاد وأمه أن يحملا معهما مدخراتهم، والتي لم تكن قليلة في ذلك الوقت، لقد أنف فؤاد ووالدته من حياة اللاجئين، ومثل بعض الفلسطينيين الميسورين لم يدخلوا تجربة المخيمات. حال وصوله إلى دمشق نزل في فندق الشرق المقابل لمحطة الحجاز، وبعد أيام استأجر بيتاً مؤقتاً في منطقة المجتهد حتى تهدأ الأوضاع في فلسطين ويعود هو وأمه إلى هناك، ولكن هذه العودة طالت. عندما شعر أن الانتظار سيطول وجد عملاً له في شركة تقلا التجارية، مترجماً من اللغة الإنكليزية إلى العربية، وكانت سوريا آنذاك بحكم خضوعها للاستعمار الفرنسي الذي فرض لغته عليها، تفتقر إلى الذين يجيدون اللغة الإنكليزية، وهو ما ساعده على أن يجد عملاً مريحاً وبسرعة. وبعد أشهر من وجوده في دمشق، سأله رفيقه في العمل محمد الحمصي والذي تكونت بينهما صداقة قوية، إذا كان مرتاحاً في البيت الذي يستأجره، قال له: «البيت مو سيء. بس ليش عم بتسأل؟». قال محمد: «جيرانا بدهم يبيعوا بيتهم، إذا كان معك تشتريه؟». قال فؤاد: «والله يا محمد ما بعرف شو بدي أعمل». قال محمد: «شوف البيت ما بتخسر شي، بصراحة أنا حابب تسكن جنبي». قال فؤاد: «بنشوفه ما بنخسر شي». وعندما ذهب لمشاهدة المنزل الكائن في منطقة الجسر الأبيض لم يكن ينوي أن يشتريه، كان يريد فقط أن يجامل صديقه محمد. ولكن عندما شاهد البيت المطل على شارع عريض، واكتشف أنه يشبه في كثير من تفاصيله بيتهم في يافا تحول كل شيء فجأة، فأراد هذا البيت بقوة. كان بيتاً في الطابق الأول من بناية مؤلفة من ثلاثة طوابق فقط، مؤلف من أربعة غرف كبيرة وصالة واسعة، وهو بيت له ثلاثة واجهات مطلة على الخارج وتحيط بالبناء حديقة صغيرة وجميلة. وأمه التي رافقته لمشاهدة البيت أعجبها البيت، وبكت لأنه يشبه بيتها التي قضت فيه حياتها في يافا، سألها: «إن شاء الله إذا اشترينا هذا البيت، بدك طول الوقت تبكي لي على يافا؟!». أجابت الأم: «لا يا ابني». سألها: «بتحبي نشتريه؟». لم تكن العجوز ترغب في الضغط على ابنها، وكانت تريد أن يتخذ قراره بنفسه، فهي تشعر نفسها عبئاً عليه منذ الخروج من فلسطين، أجابته: «زي ما بدك يا حبيبي». لم يكن يملك الثلاثة آلاف وخمسمائة ليرة ثمن ذلك المنزل، ولكنه أراده بأي حال، كان كل ما يملكه حوالي ألفا ليرة ووالدته تحمل من الذهب ما يعادل سبع مائة

وخمسين ليرة. فكر كثيراً في كيفية تأمين بقية ثمن المنزل دون جدوى، يئس تماماً من الموضوع، حتى بعد أن دخل إلى مدير الشركة إلياس تقلا بدفع من محمد وطلب منه قرضاً على حساب راتبه، وافق له المدير نظراً لمحبته له على إقراضه خمسمائة ليرة سورية، وهو ما يعادل راتبه لمدة عام تقريباً، ولكن في النهاية بقيت عقبتان، فهو في جميع الحالات سيُبقي من ذهب أمه ما يعادل مائتين وخمسين ليرة احتياطاً، فلا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحصل؟! وعلى هذا الأساس فإن كل المبلغ الذي يستطيع أن يجمعه كان ثلاثة آلاف ليرة، وبالتالي ينقص خمسمائة ليرة وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت. أصيب فؤاد بالإحباط وعَدَلَ عن فكرة شراء البيت. بعد أيام، جاء الفرج عندما حمل له صديقه محمد الخبر الذي يقول أن أصحاب البيت سيبيعونه إياه بثلاثة آلاف ومائتين وخمسين ليرة أي أقل بمئتين وخمسين ليرة، ولكن هذا لا يحل الموضوع بشكل كامل، وقال له أنهم يقسطون له المئتان وخمسون ليرة الناقصين من المبلغ بمعدل خمس وعشرون ليرة كل شهر، ولا يتم نقل البيت إلى اسمه حتى تنتهي الأقساط. جمع أمواله خلال يومين، وذهب إلى أصحاب البيت ووقع معهم عقد البيت الأولي وسلمهم المال، واتفقوا على تسلميه البيت بعد أسبوع. وبعد أسبوع كان فؤاد ووالدته ينقلون أمتعتهم إلى تلك الشقة التي تشبه شقتهم في حي النزهة في يافا. تتذكر هناء أن والدها كان يروي كيف اشترى ذلك المنزل بسعادة غامرة، وكأنه يروي مغامرة مع عشيقة يحبها، تلتمع عيناه في كل مرة، ويرتجف عندما يقول: «كدت أخسر البيت». انتهت هناء من تحضير الفطور، حملته إلى الصالة الصغيرة، وضعته أمام سعيد والأولاد، ودخلت إلى غرفة نومها.

١٤

عندما دخلت هناء إلى غرفة نومها، وقفت أمام المرآة تتأمل وجهها الذي لم يتغير كثيراً منذ كانت شابة، شاهدت تعابير وجهها مثقلة بالهموم، نظرت إلى نفسها طويلاً، مررت باطن يدها على خدها عدة مرات. وقف ولدها الصغير البالغ عشر سنوات بباب الغرفة، سألها: «ما بدك تفطري؟». قالت له: «لا يا حبيبي، افطروا إنتو». استلقت على السرير، وضعت يديها المتشابكتين خلف رأسها على الوسادة، وأخذت تنظر إلى سقف الغرفة ولا تراه. سألت نفسها: «شو اللي جابني لهون؟!». لم تكن المرة الأولى التي تسأل نفسها هذا السؤال، خطر لها كثيراً، قبل أن تتزوج من سعيد، وبعد زواجها منه، لم تشعر بالانتماء إلى المكان بالولادة، فهي اختارت أن تأتي إلى هنا. لم تكن قد دخلت أي مخيم قبل أن تدخل الجامعة. فقد ولدت في البيت الذي أحبه والدها فؤاد، الذي أصبح موجهاً للغة الانكليزية في مديرية التربية. والأستاذ الخاص الأشهر للغة الانكليزية في معهد البيروني المجاور لمدرستي ابن خلدون وجودت الهاشمي وهما من أشهر المدارس في دمشق حينها. ولدت هناء في العام ١٩٦٤ وعاشت حياتها في ذلك البيت في طفولة هادئة، كان والدها قد تزوج أمها الشامية ناديا في العام ١٩٥٥، نتيجة حب سريع بين مدرس اللغة الانكليزية في مدرسة الذكور، وبين مدرّسة اللغة الفرنسية في مدرسة الإناث المجاورة. أفقدته ناديا وحدته التي حافظ عليها قرابة ست سنوات بعد وفاة والدته، التي لم تعش سوى أشهر بعد انتقالهم إلى بيتهم الجديد في منطقة الجسر الأبيض. بعدها عاش وحيداً. تغيرت مهنته في تلك الفترة، عندما قررت سوريا تدريس اللغة الإنكليزية بدلاً من الفرنسية في مدارسها لمحو آثار الاستعمار الفرنسي، وبحكم قلة عدد السوريين المتمكنين من هذه اللغة، شغل اللاجئون الفلسطينيون في ذلك الوقت أغلبية المواقع التدريسية لهذه

اللغة لأنهم تعلموا الإنكليزية بفعل الاستعمار الإنكليزي لفلسطين، وكان فؤاد واحداً من هؤلاء المدرسين. لكنه بقي يعمل في شركة تقلا مترجماً مسائياً لحين انتهاء قرضه من الشركة. حاولت ناديا والدة هناء ألا تجعل من انتماء أولادها الفلسطيني بحكم جنسية والدهم عقبة تمنع اندماجهم في الوسط الشامي، ونجحت في ذلك إلى حد كبير مع جميع الأولاد. صحيح أن والدهم كان يحكي لهم عن فلسطين دائماً، ولكن ذلك لم يشعرهم بالغربة، رغم إحساسهم الغامض بأنهم ينتمون إلى فلسطين. حتى اللهجة التي اكتسبها الأولاد كانت اللهجة الشامية، رغم أن والدهم حافظ على لهجته الأصلية، في الوقت الذي طورت المخيمات في الأجيال اللاحقة للجيل الذي خرج بفعل النكبة، لغة خاصة بالمخيمات، هي هجين من لهجات المناطق المتنوعة التي جاؤوا منها في فلسطين إلى المخيمات، لقد جاؤوا من عشرات المناطق ذات اللهجات المختلفة، الكبار حافظوا على اللهجة الأصلية لقراهم ومدنهم، والصغار طوروا لهجة جديدة فرضتها حياة المخيمات. كانت هناء متصالحة مع لهجتها الشامية التي بقيت تحملها، ومع مدرستها وصديقاتها فيها، ومع الياسمينة الكبيرة التي تحبها في حديقة بنايتهم، والتي تشمها كل صباح مدرسي، لم تكن تشعر بفلسطينيتها إلا في أحاديثها مع والدها. ولكن كل شيء اختلف عندما طلبت المدرّسة في الصف الثالث الإعدادي وثائق من الطالبات للتقدم إلى امتحان الشهادة الإعدادية. وعندما جمعت معلمة التاريخ الوثائق من الطالبات، وقفت أمام هناء، نظرت إلى الوثائق المختلفة بيدها، قرأت صورة إخراج قيد السجل المدني الذي سُجِّل فيه: «صورة إخراج قيد من سجل الفلسطينيين العرب». وهو صادر من «الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين العرب». وليس صادراً من أمانة السجل المدني في دمشق كما هو الحال بالنسبة للطالبات الأخريات. نظرت المعلمة لهناء نظرة استغراب وتعجب، وقالت لها بلغة فيها الكثير من الدهشة والشفقة: «أنت فلسطينية؟!». نظرت الطالبات في الصف إلى هناء النظرة ذاتها التي وجهتها لها معلمة التاريخ، شعرت هناء كأنها ضبطت متلبسة في جريمة ارتكبتها، ولكنها لا تعرف ما هي. أجابت بارتباك: «نعم، أنا فلسطينية!». شعرت هناء بنفسها غريبة وسط هذه النظرات الموجهة لها من طالبات الصف كلهن، نظرات تراوحت بين الدهشة والشفقة والاستغراب، أو جامعة بين هذه وتلك.

كان شعوراً قاتلاً، لم تشعر به من قبل. وفي الاستراحة المدرسية أمطرتها الطالبات بالكثير من الأسئلة الغريبة، وكأنهن اكتشفنها من جديد وهي التي كانت طوال الوقت بينهن. فجأة، تحول عالمها الحميمي والقريب إلى عالم غريب ولاذع، شعرت بالمهانة التي لم تشعر بها من قبل. أغمي عليها تحت ضغط الأسئلة، ولم تعد قادرة على تكملة يومها الدراسي، ما استدعى إرسالها إلى البيت بمساعدة صديقتها. تركتها الحادثة في فراش المرض عدة أيام. لم ترغب أن تقول لوالدتها ما جرى، كانت حرارتها وارتعاشتها تقول إن جسدها مريض، ولكن في الحقيقة كانت روحها المريضة، فقد اكتشفت في لحظة غير مواتية، أن العالم الذي تعيش فيه ليس عالمها. وقد راعها أن زميلاتها اعتقدن أنها كانت تخفي فلسطينيتها، وهذا لم يكن حقيقياً أبداً، فليس في فلسطينيتها ما يستحق الإخفاء، كانت ببساطة تعيش كما يعشن، هذه كل الحكاية. في مرضها كانت تذكر دائماً دم خروف العيد وانتفاضاته الأخيرة التي أصابتها بالرعب قبل سنوات، وكانت ذكرى ارتعاشات الخروف تصيبها هي ذاتها بارتعاشات مماثلة. في ذلك اليوم الذي جرى فيه ما جرى، شعرت هناء أنها لا تنتمي إلى المكان ولا إلى البشر الذين أحبتهم وعاشت بينهم بكل هدوء، وهناء قبل تلك الحادثة، مختلفة عن هناء بعدها. عندما روت لسعيد الحادثة بعد سنوات، شكرت المعلمة التي نبهتها إلى اختلافها عن زميلاتها، فهي لم تكن تشعر بهذا الاختلاف من قبل. ولكن منذ ذلك اليوم أصبحت تنظر بطريقة مختلفة إلى الأشياء، وباتت تشعر أن كل ما حولها يُعرّفها بالسلب. قالت هناء عن ذلك اليوم: «وقتها حسيت كل شيء غريب عني، ولا وحدة من زميلاتي عاملتني بطريقة مش منيحة، وباستثناء اليوم الأول لما عرفوا اني فلسطينية. بعدها رجع كل شي زي ما كان وأحسن، وكانوا رفقاتي كثير حلوين، وبعدهم لهلق حلوين. بس أنا ما رجعت زي ما كنت، وما قدرت أرجع زي ما كنت. وصار واضح إلي من وقتها، إني ما بنتمي لهون، والمكان مو مكاني». عادت هناء من مرضها إلى المدرسة فتاة جديدة، وكانت على عكس ما اعتقدت زميلاتها تؤكد في كل مناسبة فلسطينيتها، التي اعتقدن أنها كانت تخفيها عنهن. وقالت لوالدها إنها سمعت أن هناك بعض الصاغة في المخيم يبيعون خريطة صغيرة من الذهب لفلسطين تعلق بسلسلة الرقبة، ورجته أن يحضر لها واحدة. كان

فؤاد فرحاً باكتشافات ابنته الصغيرة، رغم أنه لا يعرف سببها. حاولت والدتها الاعتراض بحجة أنها ما زالت صغيرة حتى تتقلد مثل هكذا حلي لها هذه الدلالات، ولكن فؤاد طلب منها عدم التدخل في الموضوع، فسكتت. عندما جاء والدها بما طلبت في اليوم التالي كانت في غاية السعادة، أزالت كل الأشياء التي كانت تعلقها في سلسلة رقبتها، واحتفظت بها في علبة مصاغها، وعلقت فيها خارطة فلسطين فقط. وعندما عادت إلى المدرسة في اليوم التالي، تباهت بحليتها الجديدة أمام زميلاتها. حتى إن صديقتها فدوى أغرمت بالانسيابية الجميلة للخريطة المصنوعة من الذهب، وطلبت من هناء أن تحصل على واحدة مثلها، رغم أنها ليست فلسطينية، كانت البنت تقول: «شو المشكلة، أنا بحب فلسطين، كمان بحب هناء». من تلك الحلية الصغيرة المنسدلة على صدرها مثل حورية البحر، أخذت هناء تكتشف نفسها من جديد. الجامعة كانت الاكتشاف الأكبر، فإذا كانت إلى ذلك الوقت لم تجد الصلة مع فلسطينيتها سوى بأبيها والخارطة الذهبية المعلقة برقبتها، فإنها في الجامعة وجدت صلتها مع فلسطين من خلال بشر فلسطينيين. كانت ما تزال النشاطات الطلابية الفلسطينية كثيرة في الجامعة، وكل فصيل فلسطيني له فرع ناشط في جامعة دمشق. تعرّفت على بعض الطلاب الناشطين في فصائل مختلفة وآخرين لا ينتمون للفصائل، وكانت سعيدة بأنها تدخل عالمها، معرض الصور... إحياء المناسبات الفلسطينية... يوم الأرض... يوم الشهيد... ذكرى النكبة... وغيرها من المناسبات الكثيرة. أهم تجربة كانت لهناء، هو اصطحابها من قبل أصدقائها وصديقاتها إلى المخيم، لقد فتنت هناء بالمخيم، ليس بأبنيته البائسة وأزقته الضيقة، لقد فُتنت ببساطته وسهولة الحياة فيه، علاقات تبدو دون أي تعقيد، يستطيع أياً كان أن يزور صديقه في أي وقت من الليل أو النهار، وأن يتحدثوا بجرأة عالية وبلا قيود، وأي أحد يستطيع أن يستضيف أياً كان بلا حرج من بساطة بيته أو تواضعه أو حتى بؤسه. كان شباب وفتيات المخيم واثقين من أنفسهم، باستثناء قلة كانت تخجل من هذه الأوضاع، هكذا بدت هناء مسحورة بعالم المخيم وعلاقاته الداخلية، لذلك أصبحت تقضي وقتاً أطول من السابق فيه، لمهمات تقوم بها هنا أو هناك، أو من أجل «استعادة فلسطينيتي كاملة» كما كانت تقول. لكنها اكتشفت بعد زواجها أن هذا العالم الذي كانت

تراه من الخارج على هذه الصورة، لم يعد كذلك عندما عاشت في المخيم كمقيمة دائمة وليس كزائرة، وأصبحت ابنته. في سنتها الجامعية الثانية، تعرّفت على سعيد. كانت تدرس في كلية علم الاجتماع في جامعة دمشق، تعرفت عليه في «يوم الأسير الفلسطيني». أذهلها أن يكون هذا الشاب الذي يتم تكريمه بين مجموعة من متقدمي العمر، هو أسير سابق، وأذهلها أيضاً أنه يكمل دراسته الجامعية في كلية الاقتصاد والتجارة في جامعة دمشق أيضاً وهو ما زال في سنته الجامعية الأولى. كان يكبرها بسنتين فقط، ولكنه أضاع أربع سنوات من سنواته الدراسية وهو في الأسر. تأملته طويلاً، وتحسرت على سنوات قضاها هذا الشاب في السجون الإسرائيلية. كانت المرة الأولى التي ترى فيها سعيد، وعندما انتهى الاحتفال، تقدمت هناء من سعيد وسألته بطريقة ساذجة: «شفت فلسطين؟». أجاب بابتسامة ساخرة: «وكيف أُسرت إذا ما شفتها؟!». قالت هناء: «ما بقصد، قصدت انت ولدت هناك؟». قال: «لا، أنا ولدت هون بالمخيم». قالت: «أنا أسمي هناء وسعيدة لأني تعرفت عليك». قال: «وأنا أسمي سعيد». قالت هناء: «معروف.. معروف. تشرفنا».

كانت هناء ما تزال تنظر إلى سقف غرفتها الذي لا تراه، عندما تذكرت المرة الأولى التي شاهدت فيها سعيد وتعرفت عليه، وكانت أصوات والديها مع والدهم تصلها إلى حيث هي. لعنت الساعة التي تعرفت فيها على سعيد، ولعنت معلمة التاريخ التي جعلتها تكتشف فلسطينيتها، هذا الاكتشاف الذي أوصلها إلى هذا المكان الذي أحبته وارتبطت به عندما كانت زائرته الدائمة، واليوم تكرهه كرهاً شديداً وهي المقيمة الدائمة فيه. انقلبت على بطنها دفنت وجهها في الوسادة، وغرقت في بكاء مكتوم.

١٥

كانت ما تزال على تلك الحالة، عندما دخل ابنها الصغير وهو يقول: «ماما.. ماما.. اجا جدي»، لم تسمع ما قاله الصغير تماماً. كان والدها وأخوها قد جاءا لزيارة العيد، سلم والدها على سعيد، وقبل الأولاد، ومنحهم عيدياتهم، كذلك فعل محسن خال الأولاد. قال سعيد مرحباً: «تفضلوا.. اقعدوا». والتفت إلى الصغير قال: «نادي أمك». ركض الولد باتجاه غرفة نوم والديه، وهو يكرر: «ماما.. ماما.. اجا جدي». قال الجد: «معليش أنا بروحلها على غرفتها، إذا ما في مانع؟». قال سعيد بارتباك: «ولو، البيت بيتك.. تفضل.. تفضل.. أهلاً وسهلاً». وتنحى جانباً حتى يترك مجالاً لأبي هناء ليعبر إلى الغرفة التي توجد فيها هناء. جلس محسن مع سعيد سائلاً عن أخباره. لم تكن هناء قد استوعبت تماماً ما يقوله الصغير، عندما أصبح والدها السبعيني فوق رأسها، لم تكن قد استطاعت ضبط ملامحها وإزالة دموعها عندما رفعت رأسها عن الوسادة، لتجد والدها فوق رأسها، وعندما شاهدته، لم يعد هناك من مجال لتغيير الوضع الذي هي عليه، كان الصغير قد خرج دون أن ينتبه إلى بكاء أمه التي تدفن رأسها في الوسادة. عندما وجدت والدها أمامها، لم تعد تتحكم بنفسها، عانقته، وأخذت بالبكاء على صدره. صدم بكاء هناء الأب الذي سارع إلى ضمّها لصدره ومشاركتها البكاء. كانت تشهق على صدره وتكرر: «تعبت.. ما عاد فيني أتحمل.. تعبت.. ما عاد فيني أتحمل.. تعبت..». كان والدها يمسد شعرها ويقول بصوت متهدج: «طولي بالك يا حبيبتي، شو صار؟». لم تكن قادرة على التوقف عن البكاء، كأنها كانت تنتظر صدر والدها حتى تنفجر انفجاراً مراً بالبكاء، كان بكاء حارقاً، وكانت تحتاج له كأنه دواء لا بد منه. كان العجوز يتألم على ابنته التي أعطاها كل الدلال الذي استطاعه، لم يكن هناك شيء يستطيع أن يفعله لها، لم يُقدم على

فعله، واليوم، وفي أي يوم يستطيع أن يفعل لها شيئاً لن يتردد ولو للحظة. لقد كانت لهناء مكانة خاصة وحظوة لدى والدها، فهو لا يشعر أنه يحبها أكثر من إخوتها فقط، بل أكثر من ذلك فهو يعتبر نفسه متعلقاً بها بطريقة سحرية تجعله غير قادر على رفض مطالبها، وهو الأب الصارم في بيته. كان أخوتها يحسدونها على تعامل والدها معها، حتى بعد أن كبروا بقي في نفسهم شيء من الإحساس بأن والدهم يميز بينهم وبين ابنته المدللة هناء. عندما طُرحت فكرة زواج هناء من شاب من المخيم، جُنَّ جنون أمها، وحاولت عشرات المرات أن تثني ابنتها عن هذا الزواج «الذي لا يليق بك.. ولا يناسبك.. والمخيم مكان ليس من مستواك». كما كانت تقول أمها، وكل العنف الأمومي، وكل الدبلوماسية الشامية التي تتقنها أم هناء، لم تجد نفعاً في ثنيها عن قرارها بالزواج من شاب من المخيم. وبعد أن يئست أمها من إقناعها، هددت بأنها ستخبر أباها، قالت هناء بلغة التحدي: «قوليله، أول على آخر بدو يعرف». تتذكر هناء وهي تبكي على صدر والدها ذلك اللقاء الصعب، يوم قالت أمها لوالدها أن هناء تريد الزواج من شاب من المخيم. لم يكن الأب يستطيع السكوت عن هكذا وضع بات معلناً في البيت، ولم يكن يرغب بتدخل أخيها محسن الذي يكبرها ببضعة أعوام، فقد كان ابنه الكبير حسن غادر منذ سنوات ليستقر في الولايات المتحدة. كان عليه أن يواجه ما لا يحب أن يواجهها. أن يواجه ابنته الأكثر قرباً إلى قلبه، في موضوع لطالما كرهه. لقد أنف هو وأمه أن يذهبا للعيش في المخيم قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة، اليوم ابنته الأحب إليه والتي يشعر بأنها روحه، تريد الذهاب إلى هناك بقدميها. عندما نادى هناء لينفرد بها في غرفته الخاصة في المنزل، كانت الأم تتوقع أن يعلو صراخ زوجها، ولم تستبعد أن يضربها لأول مرة في حياتها، فقد كانت تعرف كم كان يكره المخيمات، ليس لأنه يكره سكانها المساكين، على العكس، بل لأنه يتعاطف معهم، يكرهها لأوضاعها البائسة وغير الإنسانية. قدَّرت أنه لن يسمح لهناء بأي ثمن أن ترمي نفسها هناك، في المكان الذي يكرهه! والذي كرهه لنفسه، كيف يقبله لابنته المدللة! عندما أحست هناء أن والدها يطلبها من أجل موضوع سعيد كانت قد قررت قرارها الصعب. وهو: إنها بالتأكيد تحب سعيد بجنون، وإنها أيضاً تحب والدها بجنون، وستحاول أن تقنع والدها بكل ثمن بزواجها

من سعيد حتى لو خسرت الدنيا كلها، إلا ثمناً واحداً كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تدفعه لقاء هذا الحب الذي تشعره نحو سعيد، وهو أن تخسر والدها. وفي الوقت ذاته كان والدها قد قرر القرار نفسه، وسيحاول كل ما يستطيع أن يحمي ابنته من هذه التجربة القاسية، ولكن لن يحتمل خسارته لها، التي تعني خسارته لروحه، لقد كانت هناء روح والدها. وبسبب ما قرره كلٌّ منهما كان اللقاء أصعب مما تصورا، كان نوعاً من معركة عض الأصابع بين هناء ووالدها، ولكنها كانت لعبة قاسية عليهما معاً. عندما جلست هناء قبالته، لم يكن قادراً على البدء بأي مقدمات. سألها مباشرة: «هل صحيح ما سمعته؟». لم تتجاهل التلميح وتدعي أنها لا تعرف عما يتكلم، بل أجابت وبلا تردد: «نعم، صحيح». لم يكن فؤاد يتوقع هذا الجواب الجريء من ابنته، فأربكه الجواب. وعندها قال: «أنت بنت حلوة ومربايه، وألف مين يتمناك، وتربيتي تربايه مختلفة، وعشتي عيشة مختلفة، وحياة المخيم ما بتناسبك، اسأليني أنا، أنا أبوك وبعرف، حياة المخيم، حياة صعبة». نظر إلى ابنته التي أطرقت عينيها في الأرض ليرى وقع الكلمات عليها، ولكنه لم يستطع التقدير. تابع يقول: «يا بنتي، أنا خايف عليك، فكري منيح باللي عم تعمليه». أجابت هناء باقتضاب: «فكرت». كانت أجوبة هناء تفقده صوابه وتجعله يغلي من الداخل، ولكنه حافظ على هدوئه من الخارج. سألها: «بتقدري تتحملي حياة المخيم؟!». أجابت: «بقدر». بدأ يفقد أعصابه وصار التوتر واضحاً في صوته: «إنت بتعرفي حياة المخيم، جربتيها؟!». أجابت هناء: «ما جربتها، بس بعرفها». كانت أجوبتها تفقده كل خططه لإدارة النقاش معها، كانت واثقة جداً مما تقول، ولذلك بدا لفؤاد أن أي حجج يسوقها ومهما كانت قوتها لن تثني هناء عما قررته. في تلك اللحظة اكتشف مدى عناد ابنته التي لم يعهد فيها ذلك من قبل. سألها بسخرية: «من وين بتعرفي حياة المخيم؟». أجابت: «من زمان بروح على المخيم». صدم الأب من ذهابها إلى المخيم من دون معرفته، وصدم لأنه في هذه المحادثة اكتشف أنه لا يعرف عن حياة ابنته سوى القليل، وهو الذي كان يعتقد أن حياة ابنته صفحة بيضاء مفتوحة بالنسبة له. «بفهم من كلامك أنك اتخذت قرارك وانتهى الأمر؟» سأل والدها. «نعم، انتهى الأمر» أجابت هناء. قال: «لازم تعرفي أنني غير موافق على هذه الكارثة اللي بترمي حالك فيها»

وأراد أن يضيف: «إذا عملتي هيك وركبت راسك وتزوجتي هذا الشاب، لا إنت بنتي ولا بعرفك». ولكنه تراجع في اللحظات الأخيرة عن قول تلك الجملة، لأنه شعر أن هذه الجملة يمكن أن تكون السكين التي تقطع العلاقة مع ابنته إلى الأبد، في حال أصرَّت وعاندت وأقدمت على ما تريد. لم يكن يريد أن تصل العلاقة مع ابنته إلى هذا الحد، حتى لو تزوجت من ذلك القذارة الذي يسكن في المخيم. كان عنادها عناد ثور، تراجع والدها، ووافق على مضض، فلم يكن يرغب في أن تكون ابنته التي هي روحه وحيدة في زواجها، حتى لو تزوجت خلافاً لإرادته وتمنياته. لقد كان عرسها أقرب إلى المأتم بالنسبة لأهلها الذين أصيبوا بوجوم لم يكونوا قادرين على تجاوزه بسبب هول الصدمة. لقد كانت هناء وحدها الفرِحة بزواجها، أما أهلها فكانوا كمن يدفنونها. لقد حلفت أمها الأيمان أنها لن تحضر عرسها، ولكن فؤاد أجبر زوجته على حضور حفلة ابنتها، قال لزوجته وأولاده بشكل حاسم: «ما رح نتركها، واللي رح يعمل هيك، رح أقاطعه حتى أموت». قال لهم ما كان عليه أن يقوله لهناء. اليوم وهي تبكي على صدر أبيها تتذكر هناء تلك المحادثة، قالت بصوت متهدج لوالدها: «كان لازم تمنعني من رمي نفسي في هذا البئر». أجابها والدها: «حاولت أمنعك، بس ما قدرت، ما كنت بقدر أخسرك، وما كنت بقدر أتركك تواجهي الدنيا لحالك». قالت: «إنت الوحيد اللي كنت بتقدر تمنعني، أنا ما كنت بقدر أخسرك، لو قلت لي إذا تجوزت سعيد لا أنت بنتي ولا بعرفك، ما كنت تجوزته». صدمت كلمات هناء والدها، وندم أشد الندم على أنه بلع هذه الكلمات في آخر لحظة وفضل ألا يقولها قبل خمس عشرة سنة. لو كان يعرف أن قوله تلك الكلمات كان سيوقف المهزلة، لقالها آلاف المرات، ولبقي يصرخ فيها حتى اليوم. قال: «نعم، كان لازم أمنعك بأي وسيلة، بس هذا اللي صار. في العالم كثير أشياء غريبة بتصير وما بنعرف ليش!!». جلسا على السرير إلى جانب بعضهما، بقي فؤاد يمسد شعر ابنته بوجهها الحزين. تحادثا حديثاً هادئاً، أخرج هناء من حالتها إلى حد كبير، وقال لها قبل أن يخرجا من الغرفة: «أنا مستعد أعملك أي شي بتحسي انه بيسعدك». أجابت بلهجة محببة لم يكن يسمعها منها منذ وقت طويل: «الله يخلي لنا اياك يا أبو هناء». هكذا كانت تدلل والدها قبل أن تتزوج، فلا تقول له: «أبو حسن». وهو لقبه، بل كانت تقول له: «أبو

هناء»، وكان يحبها جداً من فمها، وعندما تمر أيام لا تناديه بهذا اللقب كان يقول لها: «شو الحلو زعلان؟!». كانت تجيب: «في حدا بقدر يزعل من أبو هناء».

١٦

خرجت هناء ووالدها من الغرفة، وكأن شيئاً لم يكن. ألقت هناء التحية على أخيها محسن، وقدمت لوالدها صحن كعك العيد وفنجان القهوة. اعتذر منها بسبب ارتفاع السكري. لم تصر عليه. حاولت إقناعهما بأن يبقيا على الغداء، وساهم سعيد معها في محاولة إقناعهما. لكنهما اعتذرا بسبب ارتباطاتهما ووعداها بتلبية دعوتها في وقت قريب. كان لزيارة والدها وقع المهدئ على هناء، وهو الشيء الذي كانت تحتاجه أكثر من أي شيء آخر. طوال عمرها كانت الأقرب لأبيها، صحيح أن علاقتها مع أمها لم تكن سيئة، إلا أنها كانت تجد مع أبيها أريحية في التعامل لم تعهدها مع أمها. أبوها اليوم رجل عجوز في منتصف السبعينات، لم يكن كذلك قبل خمسة عشر عاماً، صحيح أنه كان في الستين في ذلك الوقت، لكنه كان يظهر فتياً بالنسبة لعمره. في السنوات الأخيرة هرم سريعاً. كان لموت زوجته ناديا المفاجئ بالجلطة وقعاً غريباً عليه، لم تظهر عليها أية أعراض مَرضية، ولم تشكُ يوماً من مرض، كانت امرأة تهتم بصحتها وبنفسها جيداً، دون أن يكون ذلك على حساب بيتها. هذه المُدرِّسة الشامية الجميلة التي اختارت أن تتزوج من الفلسطيني المتوحد والوحيد في هذه البلاد. استطاعت أن تقلب حياته رأساً على عقب، واستطاعت أن تلون حياته بالألوان الجميلة، لقد أدمجته بالمجتمع الدمشقي، وكان نادراً ما يشعر بالغربة، رغم أنه حافظ على لهجته الفلسطينية. كان الآخرون يستغربون أول الأمر لهجته، ولكنهم بعد ذلك ينسونها. ولم تدرك هناء وإخوتها مدى ارتباطهم وارتباط والدهم بوالدتهم، إلا بعد موتها. اعتبر فؤاد أن ناديا خانته بموتها، وأنه اتفق معها منذ تزوجا أن يموت قبلها، لأن لا أحد له في هذا البلد سواها، قالت له: «بعيد الشر عن قلبك». وضحكت، ولكنه كان يعني جدياً ما يقول. في صباح ذلك اليوم، أيقظ

فؤاد ناديا، لكنها لم تستجب لندائه. فقال لها: «مو وقت مزحك»، عندما تأملها وجدها لا تتحرك، سقط قلبه، اقترب منها، جلس على السرير بجانبها، وضع يده على رأسها، كانت باردة. صرخ صوتاً لم يطلق مثله من قبل، احتضنها وغرق بالبكاء. وعندما دخل محسن إلى غرفة والديه بعد سماع صوت أبيه المرعب، أدرك أن والدته قد فارقت الحياة. ركض محسن نحوها وأخذ يقبل يديها وقدميها. عندما سمعت هناء بالخبر على الهاتف، أغمي عليها. لم يكن خبراً، كان كذباً صريحاً، هكذا اعتبرته هناء في اللحظات الأولى لسماعها به. وعندما استعادت وعيها لم تصدق أن والدتها ماتت. لم يعرف سعيد كيف يتعامل مع هناء التي رفضت في البداية أن تذهب إلى بيت أهلها، لأنها لا تحب هذا النوع من الكذب. لم تكن مصدقة، وسعيد لم يصدق ذلك أيضاً، ولا موت ناديا كان متوقعاً، ولا كان يمكن تصديقه. جلست هناء على الأريكة، تبكي وتنظر إلى سعيد، وتقول له: «لا تقل لي أمي ماتت؟!». اقترب منها محاولاً تهدئتها، حاول احتضانها وهو يقول: «هاي حال الدنيا». دفعته هناء بعيداً عنها وهي تصرخ في وجهه: «إنت كذّاب، إمي ما ماتت». وانفجرت في بكاء مر من جديد. عادت ونظرت إلى سعيد من بين دموعها وقالت: «بدي إمي، تعال نروح عند إمي». في السيارة التي أقلتهم إلى بيت أهلها كانت هناء تقول لسعيد: «قول لي أنا بكابوس وهلق بفيق منه». كان سعيد يقول لها: «طولي بالك حبيبتي». كانت تصرخ في وجهه: «أنت ما بتفهم هاي امي، أمي ماتت». مدت كلماتها الأخيرة حتى أقصاها وهي تلطم وجهها بأقصى ما تستطيع، أمسك سعيد يديها، واحتضنها أمام ذهول السائق الذي قدّر ما يحصل، وكان ينظر لهناء نظرات متعاطفة مكرراً: «لا حول ولا قوة إلا بالله». عندما وصلت إلى بيت أهلها، لم تسأل عن أمها سألت: «وين أبي؟؟». قادوها إلى الغرفة التي كان والدها ما يزال يحتضن والدتها فيها، ولم يقبل كل التدخلات من أخوتها أن يترك جثة ناديا بسلام. عندما فتحت باب الغرفة شاهدت أباها يحتضن أمها، لكنها لم تصدق ما ترى. سألت أباها: «ماتت أمي؟». لم يكن فؤاد قادراً على الكلام، هز رأسه إلى الأسفل موافقاً على ما تقول، وكأنها لا تريد أن تصدق موت أمها، إلا إذا أكد أبوها هذا الموت. ركضت ودفنت رأسها في صدر أمها الميتة وغابت عن الوعي.

كانت وفاة ناديا بالنسبة لفؤاد كارثة أكبر من كارثة فلسطين التي شهدها بأم عينه وكان أحد ضحاياها، خاف الأولاد على أبيهم، لم يعد موجوداً في هذه الدنيا، وبات أقرب إلى الدراويش خلال الأشهر التالية على موت ناديا، وخلال أشهر هرم ما لم يهرمه خلال سنوات طويلة. كان فؤاد يبدو أصغر من عمره بعشر سنوات، ولكنه بعد أشهر من وفاة ناديا، أصبح يظهر أكبر من عمره بعشر سنوات، لقد كبر خلال أشهر أكثر من عشرين سنة. خافت هناء على والدها كثيراً من تأثير وفاة أمها. قالت لسعيد إنها ستعود للإقامة مع والدها. لم يعترض، ولكنه رفض هو الذهاب للإقامة هناك، قال لها: «خذي الوقت اللي بتحتاجيه». جمع لها الأغراض التي تحتاجها وأوصلها إلى بيت أبيها، وبعد انتهاء العزاء أخذ ابنه الكبير الذي لم يكن قد تجاوز أربع سنوات للعيش مع أمه وجده في بيت الجسر الأبيض. كانت فترة عصيبة عليهم جميعاً، وعندما عادت هناء إلى عملها بعد انتهاء إجازة الوفاة، وانتهاء الشهرين إجازة بلا راتب التي أخذتها من عملها، باتت تتصل كل نصف ساعة لتطمئن على والدها الذي دخل في وحدة كئيبة، رافضاً التعامل مع أي شيء وكأنه يرفض الحياة، خافت هي ومحسن أن يلحق والدهم بوالدتهم خلال فترة قصيرة، ولم تكن تنقصهما هذه المصيبة. رعت هناء والدها كما ترعى طفلها الصغير، وبوفاة أمها لم تكتشف هناء كم كانت تحبها فقط، بل اكتشفت أيضاً أنها كانت تحب أباها أكثر مما تتصور وكم هي متعلقة به، كما لم تتعلق بشيء آخر. كانت تنظر إلى طفلها وأبيها في لحظات الصفو، خاصة عندما يستطيع الصغير ببراءته أن ينتزع ضحكة صعبة من جده، كانت تقول لنفسها: «أنتما أغلى ما عندي في الدنيا». وتذرف دموعاً مكتومة.

في تلك الأوقات بدا لهناء أن شبح موت أمها لن يخرج من المنزل، وسيظل يلقي بثقله عليهم جميعاً، خاصة والدها، كان موت أمها ثقيلاً جداً، ولكن الأيام أخذت تزيح شبح الموت دون أن تزيح ذكرى والدتها. بعد أشهر كان فؤاد قد تحسن كثيراً عما كان عليه بعد وفاة ناديا مباشرة. قال لهناء: «بيكفي، أخذت من وقتك كثير، صار لازم تشوفي بيتك». لم يعجب هناء الكلام الذي قاله ابوها. قالت: «بتطردني؟!». قال لها: «إنت بتعرفي أنو بطرد حالي وما بطردك، هذا البيت بيتك قبل ما يكون بيتي، وأنا تعبتك كثير، بيكفي، بيتك أولى

فيك». أجابت: «بس أنا مو رايحة». قال فؤاد: «لو بعرف إنو سعيد بوافق يعيش معنا هون، كنت قلتلك خليه يجي وبنعيش كلنا، أنت بتعرفي سعيد أكثر مني. منيح الرجّال تحملنا كل هذا الوقت». كانت هناء تعرف أنه من المستحيل أن يقبل سعيد بالعيش عند أهلها، لقد رجته خلال إقامتها عند أهلها أن ينام معهم في بعض الأيام، لكنه كان يرفض بشدة، ويعود إلى المخيم مهما كان الوقت متأخراً.

شعرت هناء أن حالتها الحزينة تستدعي ذكرياتها الأكثر حزناً، وكان موت أمها التجربة الأقسى التي مرت بها، تتذكرها اليوم في حزنها. كانت تودع والدها الذي يستند إلى يد محسن لنزول الدرج، التفت أبوها إليها، غمزها بعينه ولوح لها بيده. ابتسمت هناء. أغلقت باب البيت بعد أن غاب أبوها وأخوها عن نظرها.

١٧

كان سعيد يراقب هناء وهي تبتسم لوالدها وأخيها، كم اشتاق إلى هذه الابتسامة الحقيقية لهناء، ولطالما كانت ابتسامتها وضحكتها تسحرانه. وهذه الابتسامة بصدقها بالذات غابت عن وجه هناء منذ زمن لم يعد يذكره. شكر والد هناء لأنه جعله يرى هذه الابتسامة من جديد، كان يتمنى أن تكون هذه الابتسامة له شخصياً، رغم ذلك أحب أن يراها حتى لو لم تكن له. عندما استدارت هناء بعد أن أغلقت الباب وجدت سعيداً يجلس قبالتها، كفت عن الابتسام، أشاحت بنظرها بعيداً عنه، وذهبت إلى غرفة الأولاد لتساعدهم في ارتداء ثياب العيد. عندما مرت من أمامه شعر بوخز في صدره، كان التوتر قد هدأ في المنزل، لكنه ما زال مخيماً. فكر أن يمسك يدها، يجلسها إلى جانبه، يقبلها، ويعتذر منها عن أي شيء، ويسألها: «شو صارلنا، حتى وصلنا لهون؟!». تراجع في آخر لحظة، تركها تذهب إلى حيث تريد، خوفاً من انفجار الوضع من جديد. لقد كان لزيارة أهلها وقع التهدئة، خاف أن يبدده من جديد. وما أن مرت هناء حتى سأل نفسه: «ليش وصلنا لهون؟!». صحيح أنه منذ بداية زواجهما كان القبر واحدة من المشاكل العالقة بينهما، لكن كل المشاكل حتى الكبيرة كانت إلى سنوات خلت، مشاكل عابرة. يشعر سعيد اليوم أن حياتهما تغيرت كثيراً، وأن هناء تغيرت كثيراً أيضاً، فهذه المرأة التي تحملت ظروفه القاهرة كلها، فقدت قدرتها على التحمل. هكذا كان يبرر الحال التي وصلا إليها. كان يقول لنفسه: «هناء هي اللي تغيرت وأنا بقيت على حالي، ما تغيرت». منذ تعرف عليها قبل عشرين سنة، كان يحب أن يدهشها، وعندما تندهش كانت تزداد جمالاً، وبريق عينيها يصبح أجمل وأصفى، ووجهها يحمر، ويظهر عليه الانفعال الجميل. كان ينجح أحياناً في إيصالها إلى هذه الحالة. وفي أحيان أخرى، بدل أن يدهشها، كان يصيبها بحالة رعب لا

تستطيع الخروج منها إلا بعد فترة طويلة. هو يدرك في قرارة نفسه أنه يخاف التعامل معها، لا يخاف منها، بل يخاف من التعامل معها بطريقة خاطئة، لأن مثل هكذا تعامل قد يجعله يفقدها. ولأنه يخاف كثيراً من فقدانها، كان يرتكب الكثير من الأخطاء معها. كان يملك حساسية قوية تجاهها، ينتبه لكل كلمة تقولها، والشكل الذي تقول به كلماتها. يدقق ويحلل كل كلمة ويبحث فيها: هل تحتوي على شيء من التصغير له أو الاستعلاء عليه؟ كان حساساً جداً تجاه الموضوع، لم يكن يقول ذلك مباشرة، بعد وقت قصير من التعامل بينهما اكتشف أنه يشعر بالدونية تجاهها، لا يعرف منشأ هذا الإحساس، وهي لم تقم بأي فعل تجعله يحس بذلك. كانت المشكلة بينه وبين نفسه، فهي لم تعامله يوماً على هذا الأساس، على العكس تماماً لقد كانت حريصة على مشاعره أكثر من حرصه عليها. لقد اعتبرته منقذها من حياتها المملة التي تشعر فيها بالغربة القاتلة، ونقلها إلى الحياة الحقيقية، صحيح أنها حياة صعبة، لكنها حياة من لحم ودم. كانت سعيدة في اكتشافها عالم سعيد، عالم المخيم الذي أحست أنه عالمها أكثر من أي عالم آخر. لكن ذلك الزمن انتهى وعالم الأحلام التي حلمت بها في أزقة المخيم، تبدد في أزقة المخيم ذاتها، فلا المنقذ كان منقذاً، والأحلام أصبحت بلا معنى، وعادت الأشياء إلى طبيعتها الأولى. بسبب من إحساس سعيد بالدونية كان يمارس معها نوعاً من العناد الصبياني، وكان يقوم بهذا السلوك من أجل تغطية شعوره بالدونية ليس إلا. في السنوات الأولى لتعارفهما، كان يغطي هذا الإحساس بمقولات التغيير الكبيرة، والحتمية بالوصول إلى المساواة، وكان يعتبر أنه في تقييم البشر ليس مهماً من أين يأتون، المهم كيف يصنعون أنفسهم، والبشر هم الذين يصنعون المستقبل والتاريخ وليس هو الذي يصنعهم... الخ من مقولات الشباب التي كان ما زال عالم الثمانينات من القرن العشرين يحتملها ويختزنها. كانت هناك مقولات ما تزال سائدة بين الشباب، «أن على الأغنياء أن يعتذروا عن غناهم أمام الشباب الفقراء الذين سيصنعون المستقبل». و«على الفلسطينيين الذين عاشوا خارج المخيمات الاعتذار من الفلسطينيين الذين عاشوا في المخيمات، لأنهم لم يعرفوا الحياة والمعاناة الحقيقية التي تصنع الفلسطيني». لم يكن سعيد يقول هذا الكلام بهذا الوضوح لهناء، ولكنه كان يقوله مواربة. وكانت هي تقدم اعتذاراتها بشكل

مباشر وبشكل غير مباشر، وكان عليها أن تعتذر عن جملة انكليزية أو فرنسية تسقط منها سهواً، لأنها اعتادت أن تقول الكثير من الكلام الفرنسي أو الإنكليزي مع أمها وأبيها وأخوتها في «بيتهم الشامي». كما سماه سعيد ذات مرة، لقد كان بيتهم، بيت تتعايش فيه اللغتان، بحكم عمل الأب مدرساً للغة الإنكليزية والأم مدرسة للغة الفرنسية. وعندما سقطت كلماتها الإنكليزية على مسمعه لأول مرة، زورها سعيد بعينين غاضبتين، وقال: «هاي مو لغة مخيم». وكأن للمخيم لغته ومفرداته. خجلت من خروج الكلمات من فمها، وأصبحت كلما سقطت جملة إنكليزية أو فرنسية سهواً، تعتذر قبل أن يطلب منها ذلك. يفكر سعيد بينه وبين نفسه: لماذا لم تستطع هناء أن تتلاءم مع المخيم رغم كل السنين التي عاشتها فيه؟! ولأن هناء لم تستطع التلاؤم أصبحت حياتهما على هذه الشاكلة، جحيم يومي، نار داخلية تأكلها. عندما سألها في أحد الصدامات الأخيرة بينهما: «ليش تغيرتي؟!». أجابت: «مو أنا لحالي تغيرت، أنت تغيرت، والدنيا كلها تغيرت». أجابها بحدة: «أنا ما تغيرت، وما رح أتغير». ولكنه عندما صفق الباب خلفه وخرج من البيت، أقرَّ ما لم يكن قادراً على الإقرار به أمام هناء، إن العالم تغير، وما بقي منه لم يكن قادراً على دفعه لإنتاج أحلام يقتات عليها كما كان في سابق عهده. وعندما واجهته بحقيقته التي لم يكن يريد أن يراها أو يعرفها فتحت بقسوة بالغة وبسكين مثلمة جرحاً غائراً لم يندمل بعد. «فيق، إنت مين؟ بطل من زمن منسي، ومناضل عاطل عن العمل لسنوات في مكاتب ما إلها أي قيمة، وأخيراً، موظف في دائرة حكومة تقتلها الرطوبة، هذا إنت اليوم، ولا شي، ولا شي». كانت الكلمات قاسية على سعيد، وعندما يتذكرها ويتذكر أنها الحقيقة يرتجف مما وصلت إليها حالته، ولكن الحقيقة التي واجهته بها كانت كمن ينظف الجرح من جديد بالسكين نفسها ولكن لعمق أكبر. «أنت اليوم، ولا شي». كرر سعيد كلمات هناء بينه وبين نفسه، وشعر بأنها الحقيقة المرة التي لا يرغب بالاعتراف بها، اعتبر من الظلم له والإجحاف بحقه أن تخرج هذه الكلمات من فم هناء، وأن تقولها في وجهه مباشرة، مهما كانت تعبر عن حقيقة الواقع. لم يكن يرغب بأن يذكّره أي شخص بهذه الحقيقة، وبالتأكيد لم يكن يرغب بتاتاً أن تكون هناء هي من يذكّره، بأنه عاش مساراً متراجعاً، وأن المخيم الذي حاول أن يهرب

منه تحت عنوان الثورة وفلسطين، وكان مخلصاً لقناعاته التي كاد يموت من أجلها ودفع ثمناً غالياً لأجلها، هو مقبرته النهائية. وأن المخيم الذي كان يعتقد أنه مرجل الثورة، يتعفن وبات أولى بالهروب منه الآن أكثر من أي وقت مضى. مكان أصبحت فيه كل أنواع الرذيلة، إلا رذيلة الثورة وفلسطين، التي تستعاد كفلكلور من فصائل لا قيمة لها. لقد انتهى الحلم منذ سنوات، وبات المخيم مكاناً مؤبداً. لا يعترف سعيد بالحقيقة المرة والمفجعة التي يحسها في أعماقه، إن الوطن / الحلم قد تمزق مرة واحدة وإلى الأبد بفعل اتفاقات أوسلو التي وقِّعت قبل اثنتي عشرة سنة، وجعلت فلسطين «الحلم التاريخي». تتقلص إلى أقل من الضفة الغربية وقطاع غزة، اللذين حتى لا يرسمان خريطة جميلة مثل خريطة فلسطين التاريخية، بل يرسمان خريطة قبيحة للغاية بين موقعين قد يصل بينهما نفق أو جسر أو أي شيء آخر. الله أعلم!!؟؟ وهذا ما جعل المخيم وسكان الشتات الفلسطينيين على هامش كل شيء، ينتظرون المجهول الذي لا يأتي، ولن يأتي. كل يوم يمر كان سعيد يشعر بمزيد من الغربة، وأنه يعيش في عالم ليس له، وتزيد عليه هناء الوضع سوءاً، فالعالم الذي أتى بها إليه لم يعد عالمه، فكيف يريد منها أن يصبح عالمها؟! شعر أنه يهرم بسرعة! وأن كل الأمور أفلتت من يده! ولم يعد مسيطراً على شيء! ولا يعرف كيف يخرج من الوضع الذي هو عليه! ولا يعرف معنى الخروج! وبات يسأل نفسه سؤالاً عجيباً: «من أنا؟!». كان سعيد يكرر السؤال بينه وبين نفسه عندما خرج ولداه من الغرفة، قالا له: «بابا، إحنا جاهزين».

١٨

كان إعلان الولدين عن جاهزيتهما، هو بدء لمسيرة اليوم الأول من العيد، الذي لا تحبه هناء ولا سعيد لأسباب مختلفة. فسعيد لا يحب هذا النوع من الالتزام الاجتماعي الذي يعتقد أنه: «لا معنى له»، ويشعر أنه عبء عليه. تخلص لسنوات طويلة من عادة العيد، في ذلك الوقت كان لا زال حالماً، ويعتبر أن الحلم أقرب إلى أيدينا أكثر مما نتوقع، وكل شيء في عالمه سيتغير على رأسها العلاقات الاجتماعية البالية والقديمة التي تشدنا إلى الوراء، وكي نسير إلى الأمام، علينا أن نقطع مع ماض غير مفيد. لقد بقي يحمل حلمه ويعتبره قريب التحقيق حتى بعد أن انهارت كل الأحلام، وكان يعتبر أن من خسروا أحلامهم ليسوا سوى أصحاب نفسٍ قصير وأنهم لا ينتمون إلى حلمهم بالقوة المطلوبة. كان عليه أن يخوض نقاشات طويلة حول: هل انهيار الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية يعني انهيار الحلم بالعدالة؟ كان يتحدث بحماسة غير مفهومة، عن أن هذا الانهيار كان ضرورياً لتجديد الحلم، وكان مثاله المفضل، الانتفاضة الفلسطينية التي كانت قائمة في الأراضي الفلسطينية في مواجهة أعتى احتلال في التاريخ، الاحتلال الإسرائيلي الاستيطاني. لكن مع حرب الكويت كل شيء بالنسبة له قد انهار، والحلم بات كابوساً، وتجديد الحلم الذي كان يتحدث عنه أصبح مجال سخرية واسعة من أصدقائه المقربين، الذين أصروا أن يذكّروه كل مرة بتجديد الحلم الذي كان يدافع عنه، وهو ما كان يغيظه ويمزقه تماماً. وعلى العكس من حماسه السابق، دخل في حالة من التشاؤم واللامبالاة، لا تتناسب مع ما كان عليه قبل ذلك، وبات يلوم نفسه بشكل أو بآخر، وكأنه المسؤول عن إجهاض الحلم، ليس حلمه فحسب، بل حلم الآخرين الذين شاركوه هذا الحلم. ومنذ انهيار حلمه فَقَدَ قدرته على الرفض المعلن، وما كان قادراً على رفضه في السابق والإعلان عنه صراحة،

بات يرفضه داخلياً، لكنه يمارسه في الحياة الواقعية، لم يكن يشعر بالتناقض بين قناعاته وممارساته، كان يمارسها كنوع من المجاملة، هكذا اعتبرها في البداية. ولكنه بعد ذلك أخذ يمارسها كنوع من التكيّف وبات تفسيره لها على الشكل التالي: «ما بحب هذا الشي، ولكن ما بخسر شي إذا سويته، مو معقول أختلف مع الناس على أشياء ما بتستاهل!». ولكن هذه الأشياء الـ«ما بتستاهل». كان يخوض بسببها معارك وحروب فيها الكثير من الخسائر، كان يعتبر أن التدخل في أبسط هذه الأشياء هو «اعتداء على حريته المقدسة». كما كان يقول بتفخيم مبالغ به للكلمات التي ينطقها. والعيد الذي كان يرفض أن يقوم به بأي طقس من الطقوس التي يقوم بها الآخرون، سوى زيارة المقبرة صباح العيد، أصبح يقوم بكل ما يتوجب عليه القيام به، صحيح أنه يقول: «ما بحبه». ولكنه في النهاية يقوم بكل واجباته تجاه المناسبة. هناء كانت تكره العيد لسبب مختلف، خاصة يومه الأول، لأنه يجبرها أن تذهب في «درب الآلام»، وهو درب «مو أقل قسوة من درب الآلام الذي سار عليه المسيح». كما شبهته مرة. دربٌ يمر من بيت أهله إلى بيوت أخواته البنات. في الفترة الأولى من زواجهما، عندما كان سعيد يضرب عرض الحائط بهذه الممارسات، كانت هناء أكثر راحة، لأنها لم تكن تسير درب الآلام خاصتها. هذا لا يعني أنهم لم يزعجوها، بل كانت قدرتها على تحمل الإزعاج أكبر، وكانت الإزعاجات في أوقات متباعدة. منذ عرفها سعيد لم يحببنها، كن يعاملنها بلطف من أجل سعيد، ولكنهن أبداً لم يحببنها. حتى سلمى التي بمثل عمرها، والتي بنت معها علاقة وطيدة في بداية علاقتها مع سعيد وقبل أن تتزوج كانت تعاملها معاملة جيد جداً رغم أنها لم تكن تحبها. كن مجمعات على رأيهن بأنها امرأة متعالية و«شايفة حالها» عليهن وعلى المخيم، وما كان على سعيد أن يتزوجها، حتى سلمى، كانت تعتقد أن هذه العلاقة لن تستمر، وكانت الشاهد على انتهائها عدة مرات، ولكنها تعود للاستمرار. كانت تراهن أنها لن تستمر، فهي تعرف سعيد وتعرف هناء، وتعرف أن هذين النوعين من البشر لا يمكن أن يتعايشا طويلاً، كما اعتقدت. ولكن في الحقيقة لم يكن تقييمها هو الذي يجعلها تقول ذلك، بل رغبتها الدفينة وغيرتها الدائمة من هناء. كانت هناء تكشف واقع القبح في حياة سلمى، وفي حياة المخيم، حياة فيها الكثير من الحسابات المعقدة، لم تدركها

هناء حتى عندما سكنت المخيم، لكنها بدأت تشعر بها وتشاهد دلالاتها. حياة بائسة، وتناقضات بشر بائسين. كانت سلمى ترى في كل شيء تقوم به هناء إذلالاً لها، من لهجتها، إلى لباسها، إلى مكان عيشها، إلى الأماكن التي ترتادها، كانت تشعر أن علاقة هناء مع المخيم علاقة فيها الكثير من الغرور والترف والتعالي، وأنها تأتي إلى المخيم من أجل أن تشاهد حيوانات منقرضة! تنظر إلى البشر والأشياء باستغراب وازدراء. كانت تحسدها على كل شيء، وهذا الحسد عبّرت عنه بالكثير من العدائية بعد زواج سعيد من هناء. وإذا كانت نظرة سلمى لهناء حادة، فإن أخواته الأخريات، لم تكن نظرتهن أفضل، رغم أن معاملتهن لم تكن بالحدة ذاتها، التي انقلبت إليها العلاقة بين هناء وسلمى. لم تتعامل هناء مع أهل سعيد سوى في حالات نادرة وقليلة قبل زواجهما، باستثناء سلمى، ولم تنتبه إلى تلك النظرة في عيني سلمى، ولم تتوقع هذه النظرة منهن. كانت تتصرف بشكل طبيعي، أو هكذا اعتقدت، ولكن هذه التصرفات الطبيعية كانت تفسر تفسيراً مختلفاً. لقد كان صداماً بين عالمين وبين نمطي حياة مختلفين، لم تفهم هناء تعامل أخوات سعيد معها بهذه العدائية، ولم تفهم أخوات سعيد تعالي هذه المرأة وعنجهيتها. ولكن بعد دخولها على حياتهم، كان عليها أن تنتبه إلى كل شيء، وعندما لم تنتبه كن ينبهنها. لم تعد تأتي إلى المخيم بزيارات، ومهما طالت تبقى زيارات، لقد تغير الوضع وباتت أحد سكانه، والنظرة السياحية من الخارج، التي يرى فيها السائح ما يحب، لم تعد كذلك. كان عليها أن تعاين حياة المخيم بالعينين، وتقرأ جيداً من يدور حولها. صحيح أنها في البداية حاولت أن تتعامل مع الأشياء بطبيعتها، ولكن كل شيء أخذ يقول لها إن هذا التعامل غير مفضل هنا. منذ اللحظة التي طلب فيها سعيد أن تكف عن استخدام الجمل الفرنسية والانكليزية لأنها ليست «لغة مخيم» كما قال، بدأت تشعر أنها غريبة في المخيم، غريبة بين غرباء. لم تكن ترغب في إيصال العلاقة مع أهل سعيد إلى القطيعة، فهي كانت مقطوعة القرابة من جهة الأب، باستثناء زيارات نادرة من أعمامها وأولادهم المقيمين في مصر، والتي كادت العلاقة معهم تقتصر على المراسلة بينهم وبين أبيها، وبعض الهواتف المتفرقة على مدار سنوات طويلة، رغم غنى القرابة التي تعيشها من جهة الأم! كانت تريد أن تحافظ على علاقة متينة بين

أولادها وأهلهم الذين هم أهل سعيد، فكانت تأتي على نفسها وتذهب برفقتهم إلى بيوت أعمامهم وعماتهم، حتى في غير أوقات العيد. لم يكن سعيد يفرض عليها أن تذهب إلى بيوت إخوته سواء معه أم وحدها، كان يقول لها: «الزيارة اللي بدك تروحيها روحيها، واللي ما بدك أوعي تجبري حالك عليها». كانت تجبر نفسها من أجل أولادها، لكن البيت الوحيد الذي لم تدخله، هو بيت سلمى التي كانت علاقتها بها على أحسن حال، وانقلبت إلى القطيعة النهائية. كانت هناء على باب بيت أهل سعيد تهم بالدخول، عندما سمعت صوت سلمى، وهي في جدل بينها وبين سعيد أمام أمها تقول لسعيد: «ما لقيت غير هاي الوسخة اللي بتقرف منا، وشايفة حالها كمان، شو مين مفكرة حالها؟!». سمعت هناء صوت أم أحمد يقول لها: «عيب أنت ما عدتي استحيتي، ما بصير الحكي بعرض الناس، أنقلعي جوا». عندما سمعت هناء تلك الكلمات، امتقع وجهها، وأصابتها الصدمة. وقفت في مكانها دون حراك. كان وجهها، وجه ميت، ومتجمدة في مكانها، عندما فتح سعيد الباب وخرج غاضباً وجد هناء أمامه مباشرة، عرف من وجهها أنها سمعت الكلام الذي قيل. لم تتمالك نفسها وضعت كفيها على وجهها وركضت صاعدة الدرج إلى بيتها في الطابق الأعلى وهي تغرق بالبكاء. ركض سعيد خلفها، حاول تهدئتها لكنها رفضت الكلام في الموضوع. طلبت منه أن يتركها لوحدها، لم ترغب في معرفة لماذا قالت سلمى هذا الكلام، كانت تلك اللحظة كافية لشطب سلمى من حياتها نهائياً. لم تكن أساءت لها يوماً، كانت تحبها فعلاً كأخت لها، وكانت صدمتها كبيرة أن يأتي هكذا كلام ممن اعتبرتها أختاً لها، وكانت صدمتها الأكبر كيف يستطيع الناس أن يلبسوا على وجوههم أقنعة مزيفة، ويقنعوننا أنها حقيقية لوقت طويل.

كان إعلان الولدين عن جاهزيتهما للعيد، يعني لهناء استمرار مسيرة «درب الآلام». الذي بدأ قبل شروق الشمس بزيارة سعيد للقبر، والآن يعلن الأولاد بداية جولة لا تحبها، وعلى أناس تعرف قبل أن تذهب إليهم، أنهم لا يحبونها، ولكنها مسيرة و«يجب أن أمشيها» كما كانت تقول لنفسها.

١٩

لم ينتظر الولدان والديهما بعد إعلان أنهما جاهزان، فركضا كالبرق نازلين إلى بيت جدتهما، فهما يعرفان سلفاً أن بيت الجدة هو أول مكان في زيارات العيد. لم تنظر هناء إلى سعيد بعد نزول الأولاد، وكان هو الآخر يتجنب النظر إليها أيضاً، كانت هناك شحنة توتر كبيرة بينهما، هما يعرفان أن أي حديث لن يكون قادراً على إخراجهما من الحالة التي يعيشانها، فقط وجود الآخرين يمنع وقوع ما لا يرغبان بوقوعه، لأنهما لا يرغبان أن تكون خلافتهما علنية، رغم معرفة الجميع بها. عندما دخلت هناء إلى بيت أم أحمد كان الأولاد قد حصلوا على عيديتهم واصطدموا بها وهم خارجين، نبهتهم إلى عدم الابتعاد عن البيت، قال الولدان: «لا». وخرجا راكضين. قرأت أم أحمد على وجه هناء علامات تعرفها، علامات كانت ترتسم على وجهها كل عيد، ولكنها بدت هذه المرة أعمق. لم تكن أم أحمد في البداية تعرف سبب هذه العلامات، كانت تعتقد أنها تعبير عن القرف من الحياة التي كانت تعيشها معهم. وعندما عرفت سببها، كانت تستغرب المبالغة بردة الفعل التي تبديها هناء تجاه زيارة سعيد للقبر. وفي الوقت نفسه كانت تستغرب إصرار سعيد على زيارة القبر أيضاً، وكانت تعتبر سلوكهما عناد أطفال. ولكن في السنوات الأخيرة تعاطفت مع هناء في هذا الموضوع تحديداً، وعرفت أن الحق معها بتجنب الفال السيئ الذي يقدمه لها سعيد صباح كل عيد. منذ البداية وقبل زواجهما كانت أم أحمد لا ترتاح لهناء، وكانت تعتبر زيارتها للمخيم تشبه زيارات موظفي الأونروا الكبار الذين يدورون في المخيم مستعرضين حياة البؤس التي يعيشها الناس، هازين رؤوسهم بشكل مستمر، ومعبرين عن دهشتهم وحزنهم لما يرون. وكانت أم أحمد تتساءل: «لازم تكون حياتنا منشورة على حبل غسيل، كل من هب ودب بيتفرج عليها؟!». لقد كانت لتلك

النظرات التي شاهدتها أم أحمد في نظرات المسؤولين الدوليين وقعاً سيئاً، «شايفينا صراصير». كانت تقول لجارتها، عندما فاجأهم مسؤولو الأونروا في زيارة للإعاشة، في وقت ذروة الازدحام، وعندما كان الجميع نساء ورجالاً يتقاتلون على أحقية كل واحد منهم بالدور. وعندما شاهدوا المسؤولين ركض العديد منهم ليشرحوا أوضاعهم البائسة التي لم تكن بحاجة إلى الشرح. كانت تشعر أنها عارية تحت نظراتهم، نظرات تستبيح حياتها الخاصة وتنتهكها دون أن يأخذ أحد موافقتها، كانوا نموذجاً فريداً لعرض المأساة، صورة حزينة في ألبوم كبير، لا يمكنه أن يغطي حياتهم المنتهكة بآلاف الأشكال. كانت أم أحمد تعتبر نظرة هناء في زياراتها الأولى للمخيم، تشبه نظرات المسؤولين الدوليين، كانت نظرة سائح مندهش يرى البؤس، ويذهب لينساه بعد أيام، لكن ليتحدث عن مغامراته في زيارة مخيم البائسين الذين يتقاتلون على طعام المساعدات. كانت أم أحمد تعتبر أن هناء تلعب هذا الدور، رغم أنه غير مناسب لها. لم تحبها، ولكنها لم تجرحها في يوم من الأيام، كانت تُسمع سعيداً الكلام القاسي بشأن هناء. على عكس موقف أم أحمد منها، كانت هناء معجبة بأم أحمد التي عاشت التجربة في عمقها ومأساويتها. كانت معجبة بها قبل أن تشاهدها وتتعرف عليها، ولطالما حدثها سعيد عن أمه وتجربتها القاسية والمُرَّة، وكانت هناء تجد جماليات رائعة في حياة أم أحمد. ولكن أم أحمد التي عاشت المرارة، لم تجد في تلك الحياة أي جماليات، بل اعتبرتها رحلة شقاء مستمرة، منذ ذلك اليوم الذي خطت فيه خطوتها الأولى نحو المنافي وهي طفلة. كان اكتشاف هناء للمخيم يعميها عن مشاهدته مشاهدة واقعية، كانت تعتبر سكان المخيم نوعاً من أنواع الملائكة، بقيت طويلاً مدهوشة باكتشافاتها لعوالم المخيم التي لا تشبه في شيء عالمها الذي كانت تعيشه، كل شيء مختلف، وكل شيء أجمل رغم البؤس الذي يعيشه المخيم. كانت كأنها طفل وجد أكثر ألعابه محبة، مراقبة الناس الذين يحبهم وينتمي إليهم عن قرب، يراقبهم كأنه واحد منهم، وهو في الوقت ذاته ليس منهم. عالمها وليس عالمها، عالمها الخارجي الذي تحبه، عالمها الذي أعطاها المعنى، بعد أن كانت ضائعة. صحيح أنها كانت تقضي وقتاً طويلاًً في المخيم، واعتبرت أن هذا الوقت الذي تقضيه يجعلها تنتمي إلى المكان، كأنها أحد سكانه، ولكنها لم تعرف معنى الانتماء إلى

المخيم، إلا بعد أن سكنت هناك، وكان أول ما اكتشفته، أن سكان المكان ليسوا من نوع الملائكة كما اعتقدت. منذ تلك اللحظة بدأ كل شيء ينقلب، فالمخيم من داخله، لا يشبه المخيم من خارجه. فلم تعد أم أحمد دلالة على إرادة البشر التي لا تقهر في اختراع حياتهم، بل باتت مجرد حماة تنظر إلى كنتها بازدراء للتعالي الذي تتعامل به مع حياتها في المخيم، ونظرة الإعجاب التي حملتها هناء لأم أحمد قبل أن تصبح حماتها أخذت تتلاشى بعد السكن في المخيم، وأصبحت تقرأ نظرات الازدراء في عيني أم أحمد، لقد عماها عن إدراك معنى هذه النظرة إعجابها الشديد بالمخيم.

اقتربت هناء من حماتها التي وقفت مستندة إلى عصاها، قبلتها، وقالت: «كل عام وأنت بخير». ردت أم أحمد: «وأنت بخير يا حبيبتي... اقعدي جنبي». جلستا. كان سعيد يقف قبالتهما، يُنقّل بصره بين المرأتين. وفجأة، شعر أنه اكتشف ما لم يكن قد عرفه من قبل، إن هاتين المرأتين تشبهان بعضهما، أكثر مما تشبه البنت أمها. صحيح أنهما كانتا متشاحنتين طوال الوقت، لكنهما كانتا تتبادلان الاحترام، لقد عرفتا كيف تديران خلافاتهما باحترام بدون إساءات، على عكس العلاقة بين هناء والأخوات البنات. كان الشبه كبيراً بين المرأتين، ليس من ناحية الشكل، فهما متناقضتان على طول الخط، رغم أنهما جميلتان، ولكل واحدة جمالها الخاص، كان تشابههما داخلياً. «يا الله قديش بشبهوا بعض؟!». قال سعيد لنفسه، ولأول مرة أدرك أن هناك شبهاً ليس له علاقة بالشكل، فعلى مدى سنوات علاقتهما، أثّرت الاثنتان في بعضهما أكثر مما أثر فيهما أي شخص آخر، حتى أنهما تستعيران مفردات بعضهما. كان التشابه أمامه طوال الوقت، لكنه أول مرة يدرك أن امرأتين جاءتا من عالمين مختلفين، فيهما من التشابه ما هو عصي على التفسير. كانتا تملكان القدرة الكبيرة على التأثير فيه، ولم يكن قادراً على التأثير على أي واحدة منهما، في الوقت الذي كان يعتقد أنه يستطيع التأثير على أي منهما بالطريقة التي يرغب، هكذا كانتا توحيان له، ولكن في حقيقة الأمر هما من كانتا تمارسان التأثير عليه، وكانتا محصنتين تجاه تأثيراته. اليوم يكتشف هذا، وهو ما لم ينتبه له طوال السنوات المنصرمة. امرأتان إذا وضعتا أي شيء في رأسيهما، لا شيء يستطيع أن يردهما عما تريدان. كان يُنقل نظراته بين المرأتين،

ويقول لنفسه: «العمى شو كنت أعمى؟!». في لحظات راجع علاقته مع أمه وقارنها بعلاقته مع هناء، كان سلوك الاثنتين سلوكاً تملكياً، واستطاعتا حقاً أن تتملكانه، جزء من النزاع بين المرأتين كان نزاعاً بين عالمين مختلفين، وليس بين المرأتين المتشابهتين، وجزء منه كان على تملك هذا الرجل الذي اسمه سعيد، والذي كان موزعاً بيت هاتين المرأتين. عندما خطرت له الفكرة قال لنفسه: «العمى شو كنت غبي؟!». وعند هذه الفكرة أصابه مزيد من الغم، وسأل نفسه: «كأني كنت ألعوبة بيد هاتين المرأتين؟!». لقد اكتشف أنه أقل ذكاء مما كان يعتقد، وأن ما يزيد من تأكيده هذا الاستنتاج ما اكتشفه في السنوات الأخيرة، من أنه يجهل نفسه، التي كان يعاملها على أساس مختلف، بينما هو في الحقيقة مجرد رجل ساذج وأبله، بعد أن كان يعتبر نفسه رجلاً ذكياً وطموحاً ويملك القدرة على التأثير في الآخرين. هو يكتشف الآن أن المواصفات التي اعتبر نفسه يتصف بها، ليست غير صحيحة فحسب، بل هو شخصياً عكسها على طول الخط.

أصبح مستفزاً من الداخل بفعل الأفكار والهواجس التي كانت تخطر له، عندما قالت له أمه باستغراب: «مالك واقف.. اقعد». لم يسمعها أول مرة، كررت عليه ما قالت. نظر سعيد إليها نظرة فاحصة وقال بصوت خفيض: «أنا هيك مرتاح». نظر إلى هناء نظرة متفحصة أخرى. كان في سلوكه شيء ما غريب. نظرت المرأتان إلى بعضهما، عادتا للنظر إليه. كان في نظراته شيء مضحك، رغم أنه كان في غاية الجدية. هزت أمه عصاها بوجهه، وقالت: «هيه.. شو رِكبك عفريت؟!». ضحكت المرأتان. لم يضحك سعيد، وبقي واقفاً كالتمثال.

٢٠

لم تطل وقفة سعيد قبالة المرأتين، اعتبر أن ضحك أمه وهناء المشترك على شيء لا يستدعي الضحك، تأكيد على تشابه المرأتين، وحتى تأكيد على تواطؤهما عليه. كان مغتاظاً جداً دون أن يستطيع التعبير عن غيظه، فليس هناك شيء قامت به أي من المرأتين يمكن التعليق عليه واعتباره مسيئاً له. ولكنه كان مغتاظاً من اكتشافه المتأخر جداً للتشابه بين المرأتين. عبّر عن استيائه بطريقة غير مباشرة. نظر إلى هناء نظرة حاقدة تعرفها، ونظر إلى أمه نظرة لوم، وقال موجهاً الكلام إلى هناء: «رايح الزيارة اللي ما بتحبي تروحيها، وبس أرجع بنكمل الزيارات». كان يقصد زيارة أخته سلمى التي لا تزورها هناء على الإطلاق. لم تعلق هناء، وقالت: «الله معك». بدون تعبيرات، زاده رد هناء غيظاً، فقد اختار هذه الزيارة بالذات وأمام أمه معتقداً أنه هو الذي سيغيظها، ولكنه لم يحصل على ما يريد على الإطلاق، بل كانت أهدأ مما كانت عليه قبل وقت قصير في البيت. قالت أمه: «سلم عليها، وقلها ما تتأخر عليّ». شعر سعيد أن المرأتين كانتا ترغبان في خروجه، أو تستعجلان خروجه، وأنه بدل أن يغيظهما، قدم لهما ما تريدانه. لذلك قال وهو خارج: «مستقلعات مني». سمعتا تعليقه، وضحكتا من جديد. وهذا ما زاد في غيظه أكثر.

في طريقه إلى بيت سلمى الذي كان يحتاج إلى قليل من المشي، هدأ قليلاً. وعندها استغرب من رد فعله الطفولي الذي قام به قبل قليل أمام أمه وزوجته، وكيف أنه اغتاظ من دون سبب. تذكر ما كانت تقوله هناء من حساسيته المفرطة تجاه قضايا صغيرة وتافهة، وغياب هذه الحساسية في قضايا كبيرة ورئيسية. «يمكن يكون كلام هناء صحيح؟» سأل نفسه، وأجاب: «بالتأكيد، كان بدها تغيظني لما قالت هذا الحكي». استغرب مرة أخرى لما يحدث معه، ترى لماذا يصر

على الإحساس بالغيظ وحتى على استخدام المفردة؟ قرر أن يتناسى الموضوع. لأن الوقت لم يعد مبكراً فقد أخذت أزقة المخيم تعج بالحركة، على عكس ما كان عليه الحال في خروجه الصباحي الباكر. أخذ يشغل نفسه بمشاهدة الأولاد العابرين والفرحين في أزقة المخيم بملابس العيد الجديدة وبأسلحتهم التي تطلق الخرز، فرحين بها وكأنها أسلحة حقيقية، وعندما شهر أحد الأطفال بندقيته باتجاه سعيد، استدار سعيد نحوه، ورفع يديه عالياً، قال للطفل: «أنا أستسلم». شعر الطفل بالفخر، بأنه جعل رجلاً كبيراً يستسلم. ضحك سعيد وتابع سيره، كان الطفل ينظر فرحاً إلى الوراء حيث سعيد المستسلم أمام سلاحه ما زال في مرمى نظره. نظر سعيد إلى الخلف، كان الولد لا زال ينظر خلفه عندما اصطدم بعمود الكهرباء على الرصيف الصغير للشارع، وتحول فرح الطفل إلى بكاء. ضحك سعيد على انقلاب تعابير الطفل السريع من الفرح والافتخار إلى البكاء. تابع سيره وهو يقول لنفسه: «واضح إنو النصر بيعمي». كانت الفتيات أكثر جذباً لسعيد، أخذ يتأملهن بحقائبهن الصغيرة وألبستهن الجميلة، وهن يقلدن الكبيرات في مشيتهن محاولات إثبات الجدية وهن يسرن في الطريق، رغم أنهن لا يملكن الجَلَدْ على الاستمرار في الدور التمثيلي، فسرعان ما تعود طفولتهن لتطفو على السطح ويمارسنها بمحبة وطبيعية جميلة، بنطة هنا، بضحكة هناك، ببكاء طفولي على شيء ضائع. عندما وصل سعيد إلى بيت سلمى كان قد هدأ تماماً ونسي سلوكه الطفولي والأرعن الذي قام به قبل قليل في بيت أمه. طرق الباب الحديدي، رد جمال زوج سلمى من الداخل: «مين؟». قال: «أنا سعيد». وهو يفتح الباب قال جمال: «أهلين أبو السعود». وأخذه بالأحضان، وكان كل واحد منهما يقول للآخر: «كل عام وأنت بخير»، «تفضل.. تفضل». كان جمال يردد ويقود سعيد إلى داخل البيت. بقي جمال واقفاً وقال لسعيد: «عشر دقايق أجيب دخان وآجي». وأضاف مازحاً: «أجبلك دخان معي.. صحيح إنت ما بدخن». ضحك وذهب ليشتري السجائر. عندما قابلته سلمى في وسط الصالون الذي يحتوي على أريكتين وطاولة ومكتبة تلفزيون، الشيء الذي بادرت إلى قوله مباشرة: «شو يا، ما عدنا نشوفك غير من العيد للعيد، شو المدام مانعيتك». عاد الغيظ دفعة واحدة إلى سعيد وأكثر من السابق. قال: «خلصينا، قولي

أول كل عام وأنت بخير». قالت: «كل عام وأنت بخير، كيف حالك؟». قال: «مو منيح، إنت دايماً بتسمي بدني». قالت: «طول بالك يا زلمة، والله ما بقصد». نظر سعيد إليها وقال: «لأ، بتقصدي». وأشاح بوجهه عنها. قال بصوت حزين وهو يجلس: «أنا شو مساويلك؟». قالت وهي تجلس إلى جانبه وتُمسك بيده: «منشان الله ما تزعل مني». سأل سعيد نفسه: «شو اللي عمبيصير؟». نظر إلى سلمى، هذا الوجه الذي أمامه يشبه نفسه كثيراً عندما كانت سلمى طفلة، ولكن روح هذه المرأة لا تشبه تلك المرأة التي كانت منذ سنوات خلت. هكذا كان سعيد يفكر وهو ينظر إلى سلمى التي كانت الأقرب إليه بين أخوته جميعاً، قبل الأسر وبعده، ولكنه اليوم يشعر أن الأسرة كلها بعيدة عنه، حتى أمه وهناء اللتان كانتا الأقرب إليه حتى أيام خلت، كما كان يعتقد، فهل يتوقف الأمر على سلمى؟ لقد كانت رفيقته كل الوقت، لقد حملت له رسائل الحب الأولى التي كتبها إلى وعد، وأحبت وعد كلماته على الورق أكثر من حبها لحديثه. كانا في المراهقة هو سبعة عشر عاماً، وهي خمسة عشر عاماً، جارتهم وصديقة سلمى، لقد أغرم سعيد باسمها «وعد السماء أنت/ وعد الغد القادم/ وعد الطبيعة/ وعد الروح/ سأكون وعدك/ وتكونين وعدي/ لن يمنعني عنك حتى الموت/ أحبك». هكذا كتب لها في إحدى الأوراق التي احتفظت بها، كان يكتب كلماته في حماسة، ولكن هذه الحماسة انطفأت في روحه منذ زمن بعيد. لم تكن سلمى بلا وعد، كانتا معاً في الصورة الفوتوغرافية الملونة التي احتفظ سعيد بها عندما ودعهما قبل أن يذهب في عمليته، وفقد الصورة في تلك العملية، حزن على الصورة كثيراً. يومها لم يقل لهما إنه سيذهب ليقوم بعملية فدائية، قال إنه ذاهب في زيارة جديدة إلى لبنان، ولو قال لهما ذلك لمنعتاه، وكانتا قادرتين حقاً على منعه، فهما كانتا الأكثر تأثيراً عليه. وكان منذ أشهر قليلة قد حصل على شهادته الثانوية التي انتسب بموجبها إلى كلية الاقتصاد والتجارة في جامعة دمشق التي لم يداوم فيها بعد. فهل يستطيع شاب انتسب حديثاً إلى الجامعة، أن يقنع حبيبته وأخته اللتين يحبهما، بأنه سيذهب إلى موته؟! كان مجنوناً بحب وعد، ترتفع حرارته عندما يراها، يرتجف، ولا يعرف ما يقول، ينظر في عينيها، تخجل، يحمر وجهها، تضع عينيها في الأرض، عندما يقول لها: «بحبك»، كانت سلمى شاهدة على

كل تفاصيل العلاقة بين وعد وسعيد، حتى عندما قال لها في وداعهما الأخير: «بدي بوسة». ارتبكت وعد، وارتبكت سلمى، اقترب منها أعطته خدها فقبلها قبلتين. وتحول إلى شفتيها، أمسك شفتيها بشفتيه، لم تعرف ماذا تفعل؟ بقيت جامدة ومرتجفة بين ذراعيه، وهو يرتجف ولا يعرف ما يفعل بجمود وعد. كسرت سلمى الموقف، دفعت سعيد بعيداً عن وعد، وقالت له: «خلص روح ما تعملنا فضيحة». كانت المرة الأخيرة التي يرى سعيد فيها وعد، كان حزيناً على فراقها، ولكنه كان متأكداً أنه سيرجع بعد أيام من أجلها، فهو لا يستطيع الابتعاد عنها، هذا ما يعرفه جيداً منذ بدء علاقتهما، فهو يجن عندما يبتعد عنها، ولا يهدأ إلا عندما يعود ويراها. كان مسحوراً بها، يعتبرها جنته في جحيم المخيم. ولكنه لم يستطع العودة بعد أيام كالعادة، وعدها وعداً قاطعاً أن يعود بعد أيام لأنه لا يستطيع الابتعاد عنها فترة طويلة. لقد أحزنه في السجن أنه لم يفِ بوعده لها ويعود بعد أيام، فهذه الأيام، طالت لأكثر من أربعة سنوات، اعتقد الجميع خلالها أنه ميت، وسارت جنازته في شوارع المخيم. بكته وعد كما لم تبك إنساناً آخر، لا قبل ذلك ولا بعده، وكانت سلمى شاهدة وشريكة لها في ذلك كله.

نظر سعيد إلى عيني سلمى التي ما زالت تمسك بيده، وقال: «في شي فيك متغير». أجابت وهي تضحك: «مين بيظل على حاله يا سعيد؟». لم يعجبه جوابها. قال: «ما قصدت الشكل». أجابت سلمى: «ولا أنا قصدت الشكل». دُهش سعيد من الجواب، لقد كانت تعرف ما يقصده، ولم يكن بحاجة إلى التوضيح. سلمى تقرُّ أنها تغيرت شكلاً ومضموناً، وتعتبر أن هذا من طبيعة الحياة.

٢١

سألت سلمى سعيداً وعلى وجهها علامات الاستغراب: «ليش بدك الناس تظل زي ما هي، وليش بدوّر على الناس زي ما كانت زمان؟!». فاجأ السؤال سعيداً، وشعر أن كلامها قد أصاب منطقة حساسة داخله، فهو متذمر طوال الوقت، محتج على كل الأشياء التي حوله، يقارنها دوماً بزمن مضى كان أفضل من هذا الزمن، كما يعتقد. هذه حالة سعيد منذ سنوات طويلة، منذ انقلب من شخص متفائل بالتاريخ والحتمية التاريخية، إلى شخص متشائم لأن الحتمية التاريخية هربت من بين يديه، وبدأ الزمن يسير إلى الوراء، والناس تسير إلى الوراء، وتحولت إلى كائنات وظيفية، همها الأكل والشرب والمال المجموع، ولم تعد تهمها القضايا الكبرى والطموحات والأحلام. لم يجب على سؤال سلمى مباشرة وقال: «أنا ما بدي الناس تظل زي ما هي، ولا بدوّر على الناس زي ما كانت. أنا بدي الناس تكون حقيقية، وتكون صادقة». شعر أن كلامه مفحم ومقنع وواضح وضوح الشمس، بديهي لا يمكن الرد عليه. واستغرب أن تضحك سلمى من هذه الثقة التي يتحدث بها، وسألت: «شو يعني الناس تكون حقيقية، وشو يعني الناس تكون صادقة؟!». وأضافت وهي تربت على كتف سعيد: «يا حبيبي، بحياتها الناس ما كانت صادقة، ولا كانت حقيقية، بتلبس الأقنعة ساعة بعد ساعة، مئات الأقنعة، آلاف الأقنعة، اللي بحملها كل واحد فينا، حتى إنت اللي بتعتبر نفسك قديس الحقيقة، حقيقتك هي قناع غير موجود، الناس لازم تتحايل على الحياة، وهذا صحيح، بالكذب، بالصدق، ما مهم، المهم أن ترضى لحد ما عن حياتها، حتى تقدر تستمر. إنت وين رايح؟!!! الناس اليوم مثل الناس امبارح، إحنا اللي كان عنا أوهام كبيرة، في ناس بتصحى مثلي، في ناس ما بتصحى مثلك». وضحكت من جملتها الأخيرة. كان سعيد مستغرباً مما تقوله سلمى. واستغرب أكثر أن ما قاله لم يكن بقوة الإقناع التي اعتقدها عندما خرجت

الكلمات من فمه. سلمى التي كنت تستمع له بانتباه شديد في ما مضى وتصدق كل ما يقول، وتدافع عنه، هي التي تحطم أقواله التي يعتقد أنها بديهيات. شعر بالغيظ مما قالت سلمى، وكان غيظه أكبر لأن منطقه الذي اعتبره منطقاً قوياً، كان في غاية الهشاشة. رد عليها بحدة وبهجوم شخصي قائلاً: «كل واحد بيخرب، وبصير فاسد، بقول الكلام اللي بتقوليه، حتى يبرر سلوكه الشخصي الفاسد». كان كلام سعيد أكبر من أن تحتمله سلمى، كان اتهاماً شخصياً لها، ولم يكن جدلاً عاماً. كانت تغلي من الداخل، هناك شيء داخلها يكاد ينفجر «إنت ما بتفهم، وما رح تفهم، لأنك حمار. يا غبي مين اللي بيقول القدرة على التكيف يعني فساد. يا بكون مجنونة مثلك، يا بكون فاسدة شخصياً، صحيح إنك حمار وبتظل حمار!!». أرادت أن تقول هذه الكلمات التي وصلت إلى لسانها، لكنها تراجعت في آخر لحظة وقالت: «الله يسامحك، هيك أنا بنظرك». كان تصريح سعيد بفساد سلمى الشخصي كاوياً لها، وحفر داخلها جرحاً لم تكن تحب أن يكون سعيد من يصنعه، ولكنه هذه المرة جاء من أكثر الناس قرباً لها. لقد كان سعيد أبوها الروحي، وقد أزعجه أن تشب عن الطوق، وألا توافق على كل ما يقول دون نقاش، كما كان يجري سابقاً، بل أكثر من ذلك، لقد شعر أنها دمرت منطقه تماماً. ولأنه لا يملك الرد عليها، أساء لها شخصياً. لم تكمل سلمى كلماتها حتى شعر سعيد بالخجل مما قاله بحق أخته وصديقته الدائمة. قال وهو يداري ارتباكه: «أنا ما قصدت اللي فهمتيه». قالت بحزن: «ما مهم بتقصد ولا ما بتقصد، بس حتى إنت تغيرت وأصبحت عدواني زي ما انت شايف، حتى مانك مستعد تعتذر، لأنك بتعتقد إنك ما بتخطئ». عند هذه الكلمات بات سعيد مصدوماً ومشلولاً، واستغرب مما يجري، ومن الحالة المربكة التي وجد نفسه فيها، وكلما قال كلمات للخروج من حالة الإرباك، وجد نفسه يغرق فيها أكثر فأكثر. لقد هرب من المرأتين هناء وأمه اللتين اكتشف إنهما متشابهتان ومتواطئتان، إلى أخته الأقرب إليه ليشعر بالراحة، وها هو يجد نفسه في حالة من الارتباك والضيق أكثر مما كان عليه قبل قليل في بيت أمه. في الماضي كانت سلمى توافقه على كل شيء، على آرائه في السياسة، وعلى رؤيته الأيديولوجية، وحتى على ذوقه الجمالي في الأدب والملابس، وكانت تدافع عن كل ما يقول سواء كانت تفهم ما تدافع عنه أم لا، فهو بالنسبة لها الإنسان الوحيد المقدس الذي لا يجب على أحد

الاقتراب منه بالسوء. وكثيراً ما تعرضت للحرج لهذا الدفاع عنه، ولكنها لم تتوقف عن ذلك. كانا أصدقاء الجامعة، فعندما خرج من الأسر كانت سلمى في السنة الثانية من كلية الهندسة المدنية في جامعة دمشق، وكان هو العائد إلى سنته الأولى، كانت رفيقته دائماً في الندوات وأفلام السينما التي يحضرونها، وفي جلسات الأصدقاء الليلية أيضاً، حتى إنها تعرفت على زوجها جمال في هذه السهرات، رغم كونه ابن كليّتها وابن المخيم. كانا معاً طالما سمح لهما الوقت، ولكن سلمى لم تجعل ذلك كله يؤثر على دراستها التي أنجزتها دون رسوب. وعندما تعرَّف سعيد على هناء كانت معه، لم تعجبها، ولكنها عاملتها بلطف طوال الوقت من أجل سعيد. وعندما عرفت أن هذه المعرفة تحولت إلى حب، أصابتها الصدمة من خيار سعيد. وسألت نفسها: «ليش سعيد بيختار هاي البنت الدلوعة المُتَشَوِمة؟!». كانت تعرف أنه يعرف العديد من الفتيات، ولكن لماذا اختار هذه دون البنات الأخريات؟! كان هذا صادماً بالنسبة لسلمى، فهي تعرف أن هناء لا تتوافق مع القناعات الأيديولوجية والاجتماعية والحياتية التي يحملها سعيد. وبما أنه كان ما زال مقدساً بنظرها، فقد نسيت تساؤلها واعتبرت أنه على حق في هذا الخيار، كما هو على حق في كل شيء آخر، وبقيت تعامل هناء بلطف، إلى أن تزوجا وكان الصدام بين المرأتين، وافترقتا إلى الأبد، رغم أنهما كانتا تظهران كأنهما صديقتان حميمتان. كانت سلمى تعتقد أن علاقة سعيد بهناء علاقة عابرة، وأنها لا يمكن أن تصل إلى الزواج، وقد راهنت أكثر من شخص على ذلك، وأن هذه العلاقة ستنتهي قبل أن تصل إلى الزواج. لأنه حسب ما تعرفه عن سعيد وطريقة تفكيره، وقناعته الشخصية، بأن الإنسان ابن شرطه الاجتماعي، وأنه أسير هذا الشرط، ولم يكن مقتنعاً بنظرية الانسلاخ الطبقي، رغم يساريته. ولأنها تعرف قناعته هذه، وتعرف أن خلاف البيئة الاجتماعية يجعل العلاقة المشتركة بين الطرفين مستحيلة، راهنت على أن علاقة سعيد بهناء مصيرها الفشل قبل أن تتوج بالزواج. ولكن رهانها فشل وتزوج سعيد من هناء، ضارباً عرض الحائط، ليس بتحليلها وقناعاتها ورهاناتها، ولكن بتحليله وقناعاته الشخصية كذلك. كانت سلمى مصدومة مما يجري، وفي تلك اللحظة اقتنعت أنها لا تعرف سعيداً كما كانت تعتقد، وأن كل إنسان يقول إنه يعرف إنساناً آخر، عليه أن يكون حذراً من هكذا تصريح، لأن سلمى اكتشفت بعلاقتها مع سعيد أولاً، ومن

ثم بعلاقتها مع زوجها جمال ثانياً، أن البشر تدعي أنها تعرف المقربين منها، ولكن في الحقيقة، إن أكثر الأشخاص الذين نجهلهم، هم الأشخاص الأقرب إلينا! كانت النتيجة التي وصلت إليها واضحة تماماً بالنسبة لها. سعيد الذي يجلس إلى جانبها، هو غير سعيد الذي كان أيام حياتهما المشتركة في الجامعة، هي تعرف أنه تغير، وهو يصرُّ على أنه لم يتغير، ويعتبر نفسه كما كان في ذلك الوقت. لم تجادله كثيراً، فهي تعرف أن أخاها الحبيب والذي كواها منذ لحظات باتهامه لها بالفساد، يحب أن يعيش بالزمن الوردي من حياته، وهو لم يرغب ولن يرغب في الخروج من ذلك الزمن الوهمي إلى الزمن الواقعي، هي تتفهم ذلك. ولكن هذا الواقع بات مُتعباً للجميع، حتى لمن يحبون سعيد. أرادت أن تُخرِجه من الارتباك والضيق الذي أوقع نفسه فيه، فقالت له: «الحلوين سألوا عنك». وفي الحقيقة لم يكن أحداً قد سأل عنه، ولكنها أرادت أن تخرج من الموضوع إلى موضوع اعتقدت أن سعيداً يحبه. استغرب سعيد وقال: «مين الحلوين اللي سألوا عني؟!».

٢٢

«وعد سألت عنك» قالت سلمى كلماتها بغنج نسائي يُلمّح إلى شيء واضح. امتقع وجه سعيد أكثر مما كان عليه قبل ذكر اسم وعد، كان آخر ما يتوقعه بعد هذه السنوات التي انقضت، أن تعود وعد لتسأل عنه مرة أخرى بعد ذلك اليوم المشؤوم قبل عشر سنوات. استغربت سلمى التغير المرعب الذي ظهر على وجه سعيد، ولم تفهمه. لقد عادت وعد قبل سنوات والتقيا هنا في بيتها وهي التي رتبت اللقاء، كان لقاء حميمياً، وقد تركتهما وخرجت، وكانا على أحسن ما يرام. «شو اللي صار؟!» سألت نفسها، ولكنها لم تسأل سعيد. لم يعلّق سعيد بأي كلمة على ما قالته سلمى، ولكن وجهه كان فيه كل التعبيرات الغاضبة التي تقول الكثير من الأشياء. لم تعرف سلمى ما الذي جرى بين سعيد ووعد بعد أن خرجت من بيتها. عندما عادت وعد من ألمانيا قبل عشر سنوات احتفلت بها سلمى احتفالاً كبيراً، فقد كانت صديقة طفولتها، لعبتا معاً، ضحكتا معاً، درستا معاً، كبرتا معاً، وبكتا سعيد الشهيد معاً. بعد موت سعيد لم يعد لوعد أي شيء في المخيم وفي البلد كله. لم يمضِ عام على موت سعيد حتى تزوجت وعد من قريبها المهاجر إلى ألمانيا، ولم تعد إلى المخيم لسنوات طويلة. كان زواجها هروباً من المخيم ومن ذكرى سعيد التي لا تفارقها، فكان أن جاءها العريس الذي اعتبره أهلها فرصة عمرها، قالوا: «تجوزيه». تزوجته وذهبت هرباً إلى ألمانيا، لم تكن تفرق هو أو غيره، المهم أنه وفر لها فرصة الخروج النهائي من المخيم. لم تحب زوجها يوماً، عاشت معه، تعايشت معه، تكيفت معه، ولكنها لم تشعر أنها تحبه. لقد تعامل معها دائماً باستعلاء، «أنا اللي عملتك»، «أنا اللي سويتك»، «إنت بلاي ما بتسوي شي»... الخ من الأسطوانة المشروخة التي يُذكرها فيها مرة كل أسبوع على الأقل. لكنها تكيّفت

مع حياتها وتعودت على ألفاظه التي تعطيه إحساساً شخصياً بقيمة إضافية وفوقية يمارسها عليها. لم تكن ترغب بالعودة إلى المخيم، ولكن بعد سنوات أصبحت تحن إليه، خاصة في وحدتها هناك في ألمانيا، بين بشر لم تتعلم لغتهم إلا بالحد الأدنى، لغة لا تشبه أي شي، لغة سيضحك عليها أولادها بعد سنوات، ويتندرون على ألمانيتها، وهم أطفال. لقد كانت أجواء المهاجرين تقتلها. فهم تجمعات لا عمل لها سوى التحايل على المساعدات الاجتماعية لأخذ مبالغ أكبر، والنميمة على بعضهم بعضاً. القلة فقط اندمجت ووجدت لها أعمالاً نظامية داخل المجتمع الألماني، وكان زوجها واحداً منهم. لم يولد زوجها في ألمانيا، ولكنه ذهب صغيراً مع أهله الذين هاجروا إلى هناك ضمن موجة الهجرة الفلسطينية الأولى التي خرجت من مخيمات لبنان بعد الحرب الأهلية في منتصف السبعينات، وهو ما ساعده على أن يشق طريقه في عمله كميكانيكي طائرات في ألمانيا، ورغم أنه عاش أغلب حياته في ألمانيا، إلا أنه حمل عقليته من هناك، حملها من مخيمات لبنان صغيراً، ومن المخيم الذي حمله أهله معهم إلى ألمانيا وشكلوه مع فلسطينيين وعرب آخرين هناك. قال لها بعد حرب الخليج الأولى: «تحجبي»، فوضعت الحجاب على رأسها دون نقاش، رغم أنها لم تكن مقتنعة بالحجاب. وعندما عادت إلى المخيم في منتصف التسعينات، كان كل شيء في المخيم قد تغير، فقد غيرت فورة النمو العقاري في دمشق ملامحه، والتي أصابت المخيم بشكل كبير، حيث تم هدمه وإعادة بنائه من جديد، إنه ليكاد يكون كل بيت في المخيم قد هُدم وأعيد بناؤه. بعض الشوارع هدمت وأعيد بناؤها للنمو التجاري المذهل في أسعار محلاته التي تحولت إلى سوق مركزي من أسواق دمشق. وإلى جانبها أزقة أعيد بناؤها أيضاً من أجل استيعاب النمو السكاني الكبير الذي شهده المخيم، ولكن الأزقة بقيت أزقة، وكان الفقر والعوز يعيشان إلى جانب الغنى بفارق أزقة قليلة. عندما عرفت وعد من خلال اتصالاتها المتقطعة مع المخيم أن الجنازة التي أقيمت لسعيد، أقيمت لرجل لم يمت، وأنه قد عاد من الأسر بعد أربع سنوات، صعقها الخبر، لطمت خدها وسألت نفسها: «شو عملت بحالي؟!»، ولكن السؤال لم يكن له جواب، فما حدث قد حدث. دخلت حالة اكتئاب شديد، لم يعرف أحد غيرها من المحيطين

سبب الحالة التي دخلتها. ولكن كل شيء أصبح وراءها، ولم تعد قادرة على فعل أي شيء. وكان هذا سبباً إضافياً، لكي لا تعود إلى المخيم وتبقى هناك في غربتها الطويلة للسنوات اللاحقة. ولكن منذ حرب الكويت بدأ الحنين يأكل قلبها، وباتت تشتاق إلى المخيم الذي أخذت تتذكر لحظات حياتها الجميلة فيه، كما أخذت ذكريات سعيد تلاحقها طوال الوقت، وهي الذكريات الأجمل في حياتها كلها. فجأة اكتشفت نفسها بلا جذور، وتساءلت لماذا تجافي أهلها، لم يكونوا أهلاً نموذجيين، ولكنهم ليسوا بالسوء الذي يدفعها إلى مجافاتهم إلى هذه الدرجة. صحيح أنها كانت ترسل النقود بشكل دائم من أجل أخوتها، ولكن النقود ليست كل شيء في الحياة، هي تعرف ذلك. هكذا فكرت، وقالت علي الذهاب إلى هناك، ولأنها كانت تخاف من هذه الزيارة، ولأنها ليست سريعة في اتخاذ القرارات، فقد استمرت سنوات تفكر في السفر إلى دمشق حتى قامت بالخطوة. عندما عادت وعد، كانت سلمى أول من التقت به بعد أهلها، وحمدت ربها أنها ما زالت تعيش في المخيم، لأنها اكتشفت أن العديد من صديقات طفولتها، إما هاجرن مع أزواجهن إلى كندا، والسويد، والدنمارك، والنروج، وألمانيا وغيرها، حتى هناك من هاجر منهن إلى استراليا، وأخريات ذهبن مع أزواجهن الذين يعملون في دول الخليج. عندما فتحت سلمى باب بيتها، وجدت امرأة محجبة أمامها، استغربت فهي لا تعرف هذه المرأة من قبل، فمنذ سافرت وعد إلى ألمانيا انقطعت العلاقة، وكل ما بقي هي سلامات بالواسطة مع أخوة وعد. انتبهت وعد إلى أن سلمى لم تعرفها، ضايقها هذا بشدة، واعتبرت أنه إشارة إلى أنها تغيرت كثيراً. فإذا كانت صديقة عمرها لم تعرفها، فمن الذي سيعرفها؟! دفعت وعد سلمى المستغربة إلى داخل بيتها بهدوء وأغلقت الباب. كانت سلمى مندهشة من سلوك هذه المرأة الغريبة الداخلة إلى بيتها بلا استئذان. أغلقت وعد الباب، أمسكت حجابها من الأمام وكان وجهها لا يزال باتجاه الباب الذي تغلقه، دارت باتجاه سلمى وهي تنزع حجابها إلى الخلف، نظرت سلمى من جديد إلى وعد، تغيرت ملامحها، عقدت المفاجأة لسانها. قالت: «و و و وعد». وصرخت: «وعد. مش معقول». ارتمتا بأحضان بعضهما، وبكتا، لم تعرفا على ماذا تبكيان، بكتا فرحة ممزوجة بالخسران، كانتا روحان معلقتان

ببعضهما، جرفتهما الحياة باتجاهات مختلفة. وخلال ثوان أخذت المرأتان تنطان في مكانهما، وهما ممسكتان بيدي بعضهما، مثلما كانتا تفعلان عندما كانتا تفرحان وهما في المدرسة الثانوية. كانت الذكريات أجمل ما استعادتاه، لم تجرِ حياتهما كما ترغبان بعد أن افترقتا. عاشت سلمى سنوات جميلة في تجربتها الجامعية. ولكن وعد كانت حياتها رمادية طوال الوقت في ألمانيا، مثل رماديات خريف ذلك المكان. كانتا محمومتين تماماً، نسيتا كل شيء آخر، وتحدثتا طويلاً عن كل شيء، عن الماضي، عن حياتهما بعد سفر وعد إلى ألمانيا، عن المخيم، وعما جرى للناس الذين باتوا أشبه بالمجانين يركضون وراء كل شيء. كانت وعد عطشانة لكل شيء يمت إلى ذلك المخيم الذي احتفظت به في رأسها، ولكن سلمى أحبطتها وقالت لها: «هداك المخيم اللي في راسك، ما عاد موجود». تتذكر سلمى وعد الباحثة عن حياتها القديمة التي لم تعد موجودة، وكان الشيء الأخير الذي أرادته وعد من سلمى أن ترتب لها لقاء منفرداً مع سعيد. تتذكر سلمى ذلك اليوم، وكأنه اليوم، ولكنها بعد التغيرات التي شاهدتها على وجه سعيد تندم لأنها ذكرت اسم وعد أمامه. ولأنها لا تعرف كيف تخرج من الموضوع، اعتقدت أن ذلك يُقدّم إلى سعيد شيئاً يُفرحه، ولكنها كانت مخطئة بذلك. قالت له: «بمزح معك، أنا آسفة، أنا غليظة، خلص سعيد، ما حدا سأل عليك، وأنا ما بعرف شي عن وعد من هديك المرة». ربتت على كتف سعيد وقالت له: «شو اللي صار؟!».

٢٣

اعتقد سعيد أن سلمى تسأل عما حدث في ذلك اليوم قبل عشر سنوات، رغم إنها لم تقصد ذلك، إنما كانت تقصد ما الذي حصل في تلك اللحظة التي شهدت التغيرات على وجه سعيد. ولكنها الآن تتذكر أن موضوع وعد لم يُفتح بينها وبين سعيد منذ تلك الزيارة. وما ذكّرها بوعد، أنها قبل أيام وهي في السوق تحضّر مستلزمات العيد، التقت بأخت وعد التي سألتها تطمئن على أحوالها وأوضاعها. فقالت لها أخت وعد، إن وعداً تسلم عليها، وربما الوضع ليس كذلك، إنما أخت وعد قالت هذا نوع من المجاملة لسلمى، لأنها سألت عن وعد. وعندما رأت سعيداً تذكرت تلك المحادثة، وعندما شاهدته معكراً أرادت أن تخرجه من وضعه، وتكسر حدة ما هو فيه، فقالت كلماتها الطائشة التي تسببت بتعكير إضافي لسعيد. لقد كانت سلمى سعيدة بطلب وعد منها أن تجمعها بسعيد، وكان الطلب قد حرك فيها شيئاً من حس الأنثى الانتقامي من هناء، تلك المرأة التي أصبحت زوجة سعيد، والتي لا تحبها. لو كان الوضع مختلفاً لقالت سلمى لوعد: «أرجوك وعد، ما تفتحي جروح قديمة لسعيد»، ولكنها لم تتصرف كما كان يجب عليها أن تتصرف. حركها حب الانتقام من المرأة المتعالية، لعل وعداً تكون العنوان الذي يكسر عنجهية تلك المرأة، التي لم يكسر عنجهيتها شيء آخر، والتي تعتبرها تنظر إليها وإلى أهل المخيم بقرف ظاهر، فتحرك شيطان الانتقام الباطني لديها، وكانت سعيدة أن ترتب ذلك اللقاء بين سعيد ووعد وتغادر بيتها. اتفقت مع وعد على موعد لا يكون فيه زوجها جمال في البيت، اتصلت بسعيد وأخبرته أن لديها موضوعاً هاماً تريد أن تأخذ رأيه فيه، وأن هذا الموضوع لا يؤجل، وأنه لا يُحكى على الهاتف، وطلبت منه أن يأتي إلى بيتها في الوقت الذي اتفقت فيه مع وعد. لم يخيب سعيد طلب سلمى وكان عندها في الوقت

المحدد. عندما طرق سعيد الباب قالت سلمى لوعد: «تخبي جوة حتى نعملها مفاجأة». وقادتها من يدها إلى غرفة نومها. وذهبت لتفتح الباب لسعيد. دخل وهو يقول: «خير شغلتي بالي». أمسكته من يده وقادته مباشرة إلى غرفة نومها وهي تقول: «خير، ما في شي غير الخير». فتحت الباب وأدخلته. شاهد وعد تقف في منتصف الغرفة وهي مضطربة، عرفها بحسه، قبل أن يعرفها بعينيه، وقبل أن يعرفها بشبهها مع وعد ابنة الستة عشر عاماً التي تركها وراءه وحمل صورتها المشتركة مع سلمى وفقدها في عمليته الفدائية. لم تغادر صورة وعد التي تطفح حيوية رأسه طوال السنوات الماضية. عندما خرج من الأسر، رسم عشرات الاحتمالات للقائه بها، عشرات الاحتمالات الرومانسية، والاحتمالات الصاخبة، وأفكاراً مجنونة كانت تخطر له. وكانت وعد الشخص الأول الذي سأل عنه أخته سلمى. وعندما قالت له إنها تزوجت وسافرت إلى ألمانيا، كانت كلماتها سكيناً شقت قلبه. لقد تصورها طوال الوقت في انتظاره، تختلق الأعذار. ولكنه لم يعرف أنه كان ميتاً، ولا أحد ينتظر ميتاً. كان وقع الخبر عليه صاعقاً، ليس هناك الكثير الذي يشده إلى المخيم. فكر كثيراً وهو في الأسر بالأشياء التي تربطه بالمخيم، كانت وعد واحدة من أهمها. امرأتان ساعدتاه على تجاوز محنته في السجن، وعد، وأمه. كانت وعد صورة المستقبل والحب والجمال والطبيعة والبراءة، كان سعيد يعتبرها كل شيء في حياته، كل شيء جميل في هذا العالم، شيء ضروري بالنسبة له مثل الهواء والماء. كانت الحلم الذي يجب أن يحلمه دائماً، كانت ثابت حياته الذي لا يمكن أن يتزحزح. في شوقه إليها في السجن حاول الأسير طلال الفنان التشكيلي من غزة مساعدته قدر الإمكان برسم صورة لوعد بناء على الأوصاف التي يصفها سعيد، رسم عشرات اللوحات التجريبية بقلم الرصاص، وكان سعيد دائماً يصحح له لوحته. الذقن أضيق قليلاً، الوجه أكثر استدارة، العيون أكثر لوزية، الأنف أكثر استقامة، الخدود أكثر ارتفاعاً... الخ يعود بعد قليل ليقول كرسي الخد أخفض قليلاً شفتها السفلى أكثر امتلاء، غرتها أقل تغطية لجبهتها، عيناها أكثر بريقاً، ورموشها أطول...الخ لم يكن قادراً على تذكرها بالتفاصيل. كانت صورتها مطبوعة في رأسه كاملة تماماً، ولكنه عندما يحاول التدقيق في تفاصيلها، تغيب صورتها من رأسه نهائياً، ولا تعود

صورتها مرة أخرى إلا مكتملة، لذلك لم يكن قادراً على وصف التفاصيل التي يحتاجها الرسام ليرسم لها لوحة تقريبية. عجز طلال عن رسم لوحته بناء على أوصاف سعيد. وبعد أن رسم عشرات تجارب اللوحات التي كان سعيد يقول عنها دائماً: «ما بتشبهها على الإطلاق». نفد صبر طلال وقال له: «والله رح تخليني أرسم كل نسوان العالم، ورح تظل تقولي، هاي ما بتشبه وعد، شو هي مو خلقة الله». وهز خصره مقلداً النساء وقال: «والله يا مجنون هاي وعد اللي بتحكي عليها ما موجودة غير براسك المعفن». ملّ طلال من المحاولات الفاشلة التي يقوم بها بناء على توصيفات سعيد، واختار طريقاً آخر، هو أن يرسم وعد من خلال ملامح سعيد، محولاً ملامحه الذكورية إلى ملامح أنثوية والاحتفاظ بالتشابه، بقدر ما يساعده خياله. لم يخبر سعيداً بما يفعل، ولكن عندما انتهى طلال من لوحته كتب تحتها: «وعد سعيد التي لا تشبه أي وعد ولا أية امرأة أخرى في هذا العالم». عندما شاهدها سعيد صُعق بحجم التشابه، ليس بين وعد والصورة، بل بين سلمى واللوحة، كانت صورة سلمى لا شك في ذلك. سأل سعيد طلال الذي يعرف أنه من غزة ولم يزر دمشق يوماً سؤالاً ساذجاً: «هل تعرفها؟!». «بعرف مين؟». أجاب طلال. قال سعيد: «هاي اللي بالصورة؟». ضحك طلال وقال: «هذه وعد التي تخيلتها بعيد عنك وعن جنانك». ولكن سعيداً المدهوش قال: «هاي مو وعد». سأل طلال مستغرباً جدية سعيد في أسئلته: «مين هاي؟!». قال سعيد: «ما بتصدق، إنها أختي سلمى تماماً، بكل التفاصيل، حتى بابتسامتها وشعرها وغمازتها. ما ممكن تكون رسمتها بهاي الدقة من دون ما تكون شفتها». قال طلال: «هاي الصبية هي إنت، حاولت أعملك بملامح أنثى بقدر ما أستطيع». في هذه اللحظة أدرك سعيد أن سلمى تشبهه كثيراً. سأل سعيد سجيناً آخر: «هاي الصورة بتشبه مين؟». أجاب الرجل: «شو مفكرني أهبل يا سعيد، هاي بتشبهك كثير». تأكد سعيد أن الشبه بينه وبين أخته سلمى كبير، ومن يومها في كل انعكاس لوجهه يرى وجه سلمى. كان حديثاً مجنوناً لا يصدق، وبدا كأنه حديث مساجين يهذون بترهات بتأثيرات السجن البغيضة. احتفظ سعيد بالصورة، وأهداها إلى سلمى عندما خرج من الأسر، كانت سلمى مندهشة أن يرسم صورتها رجل لم يرها من قبل. كانت وعد تقف أمامه اليوم بعيون دامعة، حاسرة الرأس من الحجاب

الذي تكرهه، أمام حلمها الذي خسرته قبل خمسة عشر عاماً. وهو يقف أمام حلمه الذي تبدد في يوم ما، كما تبدد وعده الذي وعدها به، ووعد نفسه بها، تلاشت الأعوام التي فصلتهما عن بعضهما، وعادا إلى تلك اللحظة التي ودعها فيها سعيد ذاهباً إلى بيروت، وكذب عليها وذهب إلى موته ولم يعد، وكسر قلبها. لم يعد للزمن قيمة، أعادته وعد خمسة عشر عاماً إلى الوراء، ماحية كل الزمن المؤلم الذي مر به. لم يصدق عينيه أن هذه المرأة التي أمامه هي وعد بلحمها ودمها، واعتقد في البداية أنه في حلم، عانقته وأجهشت بالبكاء، وغرق هو بالبكاء معها. كان اللقاء قاسياً، اعتقد أنه نسيها، وذهبت في طريقها إلى غير رجعة. ولكنها اليوم تأتي لتفجر كل المشاعر التي دفنها ليعوّد نفسه على غياب وعده. عندما شاهدت سلمى الموقف سالت الدموع من عينيها، حملت حقيبتها وغادرت المنزل، وأغلقت الباب الخارجي بكثير من الهدوء، حتى لا ينتبها إلى أنها خرجت. وهما لم يكونا لينتبها أو يسمعا الباب، حتى لو صفقته، فهما كانا غادرا الحاضر إلى الماضي، موجودان بجسديهما هنا، ولكنهما موجودان بروحيهما هناك، في ما يعتبرانه ذروة حياتهما الأجمل. كانت لحظة من لحظات حياة سعيد التي لا يمكن أن ينساها وكان يتمنى أن يموت في سعادة تلك اللحظة. لقد وجد حلمه وعاد إليه. ولكن ما حدث بعد ذلك حطم الحلم، ورش على زمن البراءة الكثير من المرارة. كان سعيد قد عاهد نفسه ألا يتذكر ما جرى في ذلك اليوم، ولكن سلمى تذكره بوعد، التي كانت حاضرة، هنا في الغرفة المجاورة قبل عشرة أعوام. ينظر سعيد إلى سلمى بعيون حزينة ويقول: «ما كان لازم ترتبي هديك المصيبة بهداك اليوم». وكان يقصد لقاءه الأخير مع وعد في بيت سلمى.

٢٤

«شو صار هداك اليوم؟!». سألت سلمى، وكانت تقصد ما تقول هذه المرة، فبعد أن غادرت بيتها، لم تعرف ما جرى بينهما. كانت لحظة جميلة وصعبة عليهما بعد فراق طويل، وقد أرادت تركهما معاً حتى يأخذا راحتيهما. وكانت تعرف أن هذه الوحدة ستجرفهما إلى المكان الذي فكرت فيه مسبقاً. فهذا الحب الحارق الذي خرج من رماد السنوات لا بد أن يهدأ، وحتى يهدأ عليهما أن يذهبا إلى السرير لإطفاء النار بجسديهما. كانت تعرف كل هذا، ولم ترتبه من أجل محبتها لسعيد ووعد، كان هناك شيء إضافي يحركها، مشاعر انتقامية من هناء. واعتقدت سلمى أنها بترتيب لقاء من هذا النوع يصل إلى لغة الجسد، تستطيع أن تفك سعيداً من أسر هناء، أو تؤثر على العلاقة بينهما. فقد كانت سلمى تعتقد أن هناء تسيطر على حياة سعيد بطريقة غير مفهومة، ويجب تحريره من هذا الأسر، هكذا فكرت. اعتقدت أن لقاء سعيد مع وعد يسهل ذلك، ولكنها كانت تحاول بينها وبين نفسها تغطية مشاعر الانتقام التي حركتها لترتيب هذا اللقاء، وبهذا الشكل، فقد كان يمكن لها أن تبقى معهما وتقطع الطريق على المسار الذي أرادته لهذا اللقاء. ولأنها فكرت فيه هكذا، كان عليها أن تترك البيت لهما، وتذهب، وهكذا فعلت. عندما عادت لم تجدهما. ولما شاهدت سعيد بعد ذلك اللقاء سألته حينها: «شو صار؟». كان وجهه جامداً ولم يجب على سؤالها، أشاح بوجهه وغادر بيت أمه حيث التقى سلمى. لم تعد إلى سؤاله من جديد، اعتقدت أنه يعتبر ما جرى لا يصلح للحديث، لأنه قد يكون محرجاً له ولها ولوعد. لقد كانت سلمى تعتقد طوال السنوات الماضية أن ما رتبت له جرى بالتفاصيل التي فكرت فيها.

تعود سلمى بعد هذه السنين لتفتح الجرح من جديد. كلما تذكر سعيد ذلك اليوم، يشعر أن ما جرى لم يمضِ عليه سوى ساعات. كان

فرحاً كالأطفال بلقاء وعد، وكانت لحظة من أجمل لحظات حياته. في تلك اللحظات لم يعد يذكر أي أحد آخر في العالم غير وعد التي أمامه. وهي كذلك نسيت العالم كله وتركته وراءها واختصرت كل شيء في اللحظة التي تعيشها. لقد عادا في الزمن إلى البراءة الأولى، إلى زمنهما الطاهر، شابان صغيران يتفتحان على الدنيا، هذا ما أحس به سعيد، تأتي وعد من الزمن الطاهر والبريء، ومن روحه المشتعلة، الباحثة عن المستقبل الذي سيقبض عليه بقبضة يده بقوة، ولن يفلته أبداً. وعد تمسح سنوات القبح في حياة سعيد وتعيده إلى الحلم من جديد، تمسح السنوات التالية على خروجه من الأسر التي وجد نفسه يعيش في عالم لا يعرفه من قبل، عالم غريب، لا ينتمي إليه، عالم يبحث الكل فيه عن المصالح الضيقة والمباشرة، عالم بلا أخلاق وبلا قيم وبلا روح. يوم لقائه بوعد في بيت سلمى كان غاضباً، كما لم يكن غاضباً في يوم من الأيام، عالمه الشخصي انهار، حلمه الوطني انهار، انهارت منظمة التحرير التي عادت بقاياها إلى بقايا وطن تحت حراب الاحتلال، انهار فصيله السياسي الذي انتمى إليه وقاتل في صفوفه وأسر، وبات تجمعاً للبشر الأكثر تخلفاً، يساريون بذقون، تحولت ذقونهم ذات الدلالات اليسارية، إلى ذقون ذات وظيفة دينية، والتجأ أصحابها إلى الجامع. كوادر فصائل يسارية انتقلت من فصائلها اليسارية إلى فصائل إسلامية وحملت الخطاب السياسي نفسه، وحتى التحليل ذاته، وحل الله في التحليل الجديد مكان المادية التاريخية والمادية الجدلية، التي كانت حلاً لكل شيء وتفسر كل شيء حسب قناعاتهم، وبات الله حلاً لكل شيء ويفسر كل شيء، وبات الملجأ الوحيد للمعذبين الذين فقدوا حلمهم وطموحهم، وتحطمت إرادتهم، وأصبح الله المعين الوحيد لهم على قسوة الحياة التي يعيشونها. وما عدا ذلك بقي الخطاب ذاته، ومفرداته ذاتها، والذقن ذاتها. كان سعيد يُدَهْش من سهولة التحول عند هؤلاء، ولم يكن قادراً على تفسير تلك الظاهرة، واستكان، إلى تفسير بدا له مقنعاً «إن الهيكل العظمي للتطرف واحد، وبعد ذلك ليس مهماً إلى أي فكر تنتمي، ولا إلى أي فصيل تنتقل» كما قال مرة. كان أغلب الذين انتقلوا من فصائل يسارية إلى فصائل إسلامية، هم الأكثر تطرفاً في فصائلهم. من أجل كل هذا كان عليه أن يغادر فصيله، فلم يعد البقاء ممكناً، في جو معادٍ يحتاج المرء فيه كل مرة إلى شرح البديهيات

السياسية والوطنية من جديد. لقد انتهت حياته السياسية وبات بلا عمل منذ فترة، كان كل شيء حوله يتداعى وينهار. تخلى الكل عنه، أصبح مثل المريض بالجرب، لا أحد يريد الاقتراب منه، لأنه بات شخصاً محتاجاً. لقد كان زمناً صعباً، كان من الصعب على سعيد أن يبدأ من جديد وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وخفف عنه أنه لا يبدأ من جديد وهو في الخمسينات من عمره، كالعشرات غيره الذين يعرفهم جيداً وباتوا على الرصيف. لم يعمل سعيد قبل ذلك سوى كمتفرغ للعمل السياسي. كانت الهوية التنظيمية التي يحملها فيها خانة فقدت معناها، كان يكتب في تلك الخانة كلمة «مناضل» ولكن لم يعد أحد كذلك في مكاتب الفصائل في دمشق منذ سنوات، بل إنه وفي أحسن الحالات كان يمكن أن يطلق على بعضهم حسب تعبير سعيد نفسه «مناضلون متقاعدون مبكراً». وكان الأكثر إيلاماً له أنه بات عالة على هناء، فهي التي تعيله، وزادت حساسيته تجاهها بسبب ذلك، ولم يعد يطيق أي شيء منها. في تلك اللحظات أخرجته وعد من العالم الذي يطبق على رقبته ككماشة لا يمكن الخلاص منها، وأعادته إلى العالم الذي يحبه. مسَّد شعرها بيده، حملق بعينيها، إنهما العينان ذاتهما اللتان أغلق عليهما قلبه، لقد أراد أن يتأملها، وأن يبقى يتأملها إلى الأبد. إنها هي، تحسسها، ليتأكد أنها حقيقة وليست حلماً طارئاً سيصحو منه بعد قليل، كان يضمها إلى صدره، ويعود ليبعدها من جديد حتى يتأملها، وكأنه عندما يضمها ولا يرى وجهها، يخاف أن تكون قد اختفت، يعود لينظر إليها ليتأكد من أنها ما زالت موجودة. لم يكونا بحاجة إلى الكلام، فأي كلام يقال، لم يكن قادراً على شرح الحالة التي يشعران بها. كلمات قليلة قيلت في ذلك الوقت، لم يسألها عن شيء آخر، سألها عن نفسها فقط، وهي لم تسأله عن أي شيء، كانت تريده أن يأخذها، أن يصنع لها ذكرى تحفظها داخلها إلى الأبد. لم تعرف كيف تشرح له الوضع، ولم يكن الوضع قابلاً للشرح أصلاً. ولم يكن هو راغباً في أن يفعل ما تريد، لا يريد بعد كل هذه السنوات خدش البراءة التي حافظ عليها في ذلك الوقت. لم تكن وعد لتتوقف عن المحاولة، قالت: «عطشانة». رد سعيد: «بشربك بعيوني». وذهب ليحضر الماء. عاد بعد قليل يحمل كأس الماء بيده، كانت وعد ممددة على السرير، عارية تماماً. تأملها وهو داخل، ما زالت تملك جسدها ذاته الذي ملكته في ذلك الزمن، رغم

أنه لم يرها عارية من قبل، لكنه أحس التشابه. تأمل جسدها الممدد الذي يناديه بكل الرغبة، تأمله بحنان وبدون رغبة جنسية، تأمله لأنه يرغب في تأملها، كان كأنه نائم ويتحرك في حلم يحبه جداً. قدم لها كأس الماء شربت قليلاً منه، ووضعته إلى جانب السرير. في الوقت الذي أخذ سعيد شرشفاً من خزانة سلمى غطى به جسد وعد العاري. جلس إلى جانبها، أمسك رأسها قبَّلها من جبهتها، وقال: «وعد، أنا ما بقدر». كان مصدوماً من سلوكها، ولكنه لم يرغب في إزعاجها، فتعامل معها بكل اللطف الممكن حتى لا يفسد لحظته، ولا لحظتها. لم تمانع في تغطيتها. قالت وهي تمسك رأسه كما يفعل وقالت: «بترجاك سعيد، لا تخذلني». قبلته وقالت: «أعطني الشنطة». قام سعيد وأحضر لها حقيبتها، وضعها في حضنها فوق الشرشف. فتحت الحقيبة، وأخرجت مغلفاً سميكاً، أمسكت يده، انتصبت قليلاً، سقط الشرشف في حضنها كاشفاً نهديها المنتصبين، قالت: «ما تخذلني، خذ». قال سعيد: «شو هدا؟». قالت وعد: «عشرين ألف مارك إلك». عندما سمع كلماتها، تدفق الدم إلى رأسه، شعر نفسه أقل من حشرة، وأنه شخص نذل وحقير وتافه. وقف منتفضاً وهو يرتجف، زم عينيه، نظر إلى وعد قال بحدة شديدة وهو يصفعها: «لست للبيع»، خرج دون أن ينظر إلى الوراء. لم يروِ سعيد ما جرى في ذلك اليوم لأحد، ولن يرويه لأحد. لقد دمرت وعد آخر ما تبقى لسعيد، زمنه الماضي الجميل. لقد جاءت من الماضي ومن البعيد لتكمل إغلاق الدائرة الجهنمية عليه، الدائرة التي كان الماضي منقذه الوحيد منها، ماضيه الجميل الذي عاشه. لم يكن قادراً على الإجابة على سؤال سلمى: «شو صار هداك اليوم؟!». والتي اعتقدت أن لغة الجسد كانت مشتعلة في سريرها الذي أعارته لهما في ذلك اليوم، لأن السرير كان قد عبث به كما شاهدته بعد أن عادت إلى بيتها. بينما ما حدث كان مدمراً بالنسبة له. نظر إلى سلمى مرة أخرى، وقف وهو يقول: «اللي صار صار، على كل حال كل عام وأنت بخير». ركضت وراءه وهو مسرع باتجاه الباب الخارجي، وهي تقول: «استنى.. استنى.. لك شو صار؟!». وعندما وصل إلى الباب كان جمال زوج سلمى يفتح الباب من الخارج. وعندما شاهده في الباب قال: «خير، وين رايح، بعدني ما شفتك». قال سعيد: «برجع». وخرج مسرعاً.

٢٥

«ما كان لازم أجي لهون أصلاً» قال سعيد لنفسه بعد أن خرج من بيت سلمى «شو جابني لهون» قال محدثاً نفسه بصوت مسموع. لم تغب صورة وعد التي انزلق الشرشف عن صدرها ليظهر نهداها الجميلان المنتصبان أمام عينيه عن مخيلته، وقد استغرب انتصابهما رغم إنجابها لثلاثة أولاد، كانت صورة جميلة لحبيبة كان يعبدها وقادمة من زمن البراءة، صورة لا يمكن محوها من ذاكرة من أحب فتاة بالقوة التي أحب فيها وعد وأحب زمنها. ولكن ما إن تحضر هذه الصورة التي أحبها ببراءتها، حتى تتبعها وتمحوها صورة وعد وهي تمد يدها إليه برزمة الماركات التي جعلته يفقد عقله، ويكاد يصاب بالجنون. سأل نفسه: «ليش اعتقدت أنني بهذا الرخص؟! وأنا تافه لهذا المستوى بنظرها؟!». فكر في الموضوع طويلاً، ولكنه لم يسألها لماذا قدمت له المال؟ ولم يعرف ما كان دافعها، ولم يحاول أن يعرف، ولن يعرف بقية عمره لماذا قدمت له هذا المال ولماذا قدمت له جسدها؟! سوداويته كانت تعمي عينيه، وجعلته يرسم صورة سوداوية وقاتمة لما جرى في ذلك اليوم: امرأة غابت خمسة عشر عاماً عن مكان لم تحبه، وكان يشعرها بالضيق والقرف، ولم يكن رئيفاً بها. عادت لتمارس تعاليها وعنجهيتها على المكان وعلى البشر الذين عاشت بينهم، لتُفهمهم أنها لم تعد من عالمهم، وباتت أرفع وأرقى من القذارة التي يعيشون فيها. عادت لتشتري حبيب الأمس الذي حلمت به طويلاً ببعض المال وتحوله قواداً وتحطم صورته النظيفة. امرأة مدمرة، تعود لتدمر كل من دمرها، وهو واحد من الذين ساهموا بتدميرها. عادت لتنتقم منه وتدمره مثلما فعل بها. روح الانتقام كانت تحرك تلك المرأة، حقد مكتوم وخفي يحركها. لقد رجعت لتدمره وتقتل روحها وروحه وزمنهما الجميل الذي طالما اعتقد أنهما شريكان فيه، واكتشف أنه

العالم الوهمي خاصته. جاءت لتحول كل شيء إلى بضاعة تباع وتشترى، بما فيه هو شخصياً. لقد أظهرت قبح روحها، بشكل لم يكن ليتخيله حتى في كوابيسه. هكذا كان يفكر في الموضوع، وهكذا أصر على الاحتفاظ به خلال السنوات العشر التي انقضت على ذلك اللقاء، شعر بنفسه ضحية لمؤامرة امرأة على تاريخه النظيف، لا يكفي ما يلوث حاضره، تأتي وعد من الماضي البعيد ومن البلد البعيد لتلوث ماضيه الجميل أيضاً. لم يكن أمامه خيار سوى أن يفعل ما فعله. يحتج على سلوكها ويرفضه جملة وتفصيلاً بصفعها. هكذا رسم صورة قبيحة للمرأة التي رسم لها في السابق أجمل الصور، لم يتنازل عن قباحة الصورة واستكان لها، حتى أنها أعجبته، وتناسبت مع حالة الدراما السوداوية التي كان يعيشها واستمرت معه في الزمن اللاحق. لم يحاول طوال السنوات اللاحقة أن يفكر في احتمال آخر غير الذي رسمه بنفسه، لم يحاول أن يضع نفسه مكان وعد ويستفسر: هل حاولت فعلاً أن تشتريه كما اعتقد؟! لقد كانت وعد أبسط من كل تعقيدات سعيد، وكل الصورة التي رسمها للقاء المشؤوم، لم تخطر على بالها لا من قريب أو من بعيد. وعد بقيت وعداً على بساطتها وعلى حبها لسعيد. لم تحاول أن تدمر أي ماض جميل ونظيف يخصه، ولا كان بإمكانها فعل ذلك. كانت ما تزال تحبه رغم أولادها الثلاثة. لم تفكر في التخلي عنهم، ولم تفكر في تدمير أسرتها، ولا أسرته، كان كل ما ترغب به أن تعود في زيارة لماضيها، تحمل منه الذكرى، وتعود لممارسة حياتها المتكيّفة معها بلا حب، اعتادتها وتعرف كيف تتجنب المشاكل فيها. لم ترد أن تشتري أي شخص ولا أي حب، وهي أكثر الناس معرفة أن الحب لا يُشترى بالمال، فلم يستطع أي أحد غير سعيد طوال السنوات الماضية أن يدخل قلبها، حتى زوجها لم يستطع دخول قلبها. لم تكن تفكر بلقائها مع سعيد وتقديم جسدها له، بوصفه خيانة لحياتها الزوجية، فالخيانة لم تخطر يوماً في بالها، ولم تكن المتعة الجنسية هي التي حركتها. كان ما تقوم به هو استعادة ذكرى فقدتها، كانت تعرف أنها فقدته إلى الأبد، لكن اعتبرت أن من حقها أن تحمل ذكرى وأن تلامس حلمها. لم ترغب في شرائه، ولا كانت قادرة على ذلك، كانت تريده أن يلامس حلمها معها. كانت تريده كالحلم مرة واحدة ونهائية. ولم يكن موضوع المال ضمن الحساب، ما جعل موضوع المال يدخل الحساب،

هو ما عرفته من سلمى عن أوضاع سعيد المالية المتدهورة التي تدفعه إلى الجنون، خاصة وأنه يعيش تقريباً على نفقة زوجته، وهو لا يعرف كيف يخرج من هذا الوضع. عندما قالت سلمى هذا الكلام لوعد، قالته لتخبرها عن أوضاعه، لا لتحل له وعد مشاكله المالية، أخبرتها بذلك كما أخبرتها عن الكثير من الأشياء الأخرى التي مرت على حياة سعيد. في هذه اللحظة دخل حساب المال. لم ترَ وعد أن من الإنصاف أن يعاني حلمها ما يعاني من أجل المال، فقد كانت تعتبر أن المال لا يستحق هذه المعاناة. معها من المال ما يكفي لمساعدته ويزيد، وهذا لا قيمة له. لقد عزَّ عليها ما سمعت، فقررت أن تمنحه المال بلا مقابل، لم يخطر لها أن تستعيده ولم يخطر لها أي مقابل، شيء تافه، في زمن تافه، لا يستحق الذكر، ولا يستحق أحد أن يعاني من أجله، كيف الحال إذا كان من يعاني هو حلم عمرها المكسور؟! لم يكن المال في الصورة أصلاً، دخل طارئاً بفعل الوضع الجديد لسعيد، ببساطة هو يحتاج المال وأنا أملكه، سأمنحه إياه ليخرج من حالة الضيق التي هو عليها، هكذا كان الوضع بالنسبة لوعد لا زيادة ولا نقصان. بدل أن يصنع سعيد لها الذكرى التي أرادت، صنع لها كابوساً سيرافقها طوال عمرها. عندما صفعها وقال لها إنه ليس للبيع، لم يكسر حلمها القديم فقط، بل جعلها تشعر نفسها عاهرة، من كانت تبحث عنه لكي يمنحها ذكرى الزمن الجميل، دمرها وحولها إلى عاهرة، هكذا وببساطة، حبيب عمرها وصورة الحلم والوعد يحولها من حبيبة طاهرة وبريئة إلى عاهرة، ابنة ليل بصفعة واحدة. كانت تتوقع منه كل شيء، إلا أن يُحمِّلها الذكرى الأكثر مرارة وإيلاماً في حياتها. ومن الذي يفعل ذلك؟! حبيب عمرها الذي استمرت في حبه طوال السنوات التي لم يكن موجوداً فيها. لقد حطم ما كانت تعتبره عالمها الجميل مرة واحدة وإلى الأبد. لم يخطر هذا على بال سعيد، لأنه ببساطة لم يكن يفكر إلا بنفسه، واعتبر أن الآخرين كلهم يحاولون المس به، ولكل واحد منهم أسبابه. عندما مدت وعد يدها بالمال، وقالت: «عشرين آلف مارك إلك». تذكر سعيد الإذلال الذي يحيا فيه لأنه يعيش على نفقة زوجته هناء، كان يشعر نفسه مدمراً من هذا الوضع. وشعر أن وعد تأتي لتزيد من إذلاله ومن تدميره، أحس أنه قواد يعيش على نفقة النساء، اللواتي يتفضلن ويمنحنه بعضاً من مالهن الخاص. لم يكن أي شيء قادر على إقناعه بغير هذه الصورة

التي في رأسه، هكذا ثبتها في ذاكرته.

عندما خرج سعيد من بيت سلمى لم يكن هناك أي هدف لسيره في أزقة المخيم، يسير بلا هدف أينما تأخذه قدماه، لم يعرف الوقت الذي قضاه وهو يمشي، ولم ينتبه إلى الطرق التي مر بها. وعندما هدأ قليلاً، عاد لينتبه لمظاهر العيد من حوله هنا وهناك. وكان الوقت قد أصبح مساء، وهو لم يقم بواجبات أول أيام العيد كما كان يقوم بها في أعياد السنوات الأخيرة، عندما أصبح يلتزم هذه الواجبات. قرر أن يعود إلى البيت من جديد.

٢٦

أمام باب البيت، وجد سعيد ابنه الصغير علي، وعندما شاهد علي والده قطع عليه طريقه، وضع يديه على خصره، وافتعل تكشيرة جميلة وقال لوالده مقلداً لهجة الكبار: «وبعدين معك يا سعيد، وين العيدية، شو بدك تاكلها علينا». ضرب سعيد على رأسه بطريقة مسرحية، وقال: «أنا آسف يا لورد علي، وحياتك عندي نسيت». قال الولد: «هاي اتذكرت، مد ايدك على جيبك خلي الله يحبك». ضحك سعيد، أخرج النقود من جيبه وهو يقول: «حاضر... حاضر». أعطى العيدية لعلي وسأله: «وين أخوك؟». قال الصغير: «راح مع رفقاته على ساحة العيد». سأل علي والده: «بدنا نروح عند عماتي». قال سعيد: «والله ما بعرف يا بابا، بنشوف بعد شوية. على كل حال لا تبعد عن البيت». ركض الولد باتجاه أولاد الحارة الذين ينتظرونه. نظر سعيد إلى ابنه الفرح بالعيد وهو يبتعد، هز رأسه وهو يبتسم من أداء ابنه. لام نفسه على أنه في زحمة هذا اليوم وتوتره، نسي أن يعطي أولاده العيدية، وما كان عليه أن ينسى مثل هذا الأمر. لم يكن سعيد يعرف إذا كان قادراً على إكمال واجباته في أول أيام العيد أم لا، ولم يكن يعرف إذا كانت هناء جاهزة للقيام بهذه المهمة، فالزيارة التي لا تذهبها هناء انتهى منها، لقد زار سلمى، وقال لنفسه: «يا ريتني ما زرتها». هو يعرف أن هناء لا تحب العيد، وليست لديه الرغبة في القيام بواجبات العيد. شعر أن كل شيء ثقيل عليه هذا اليوم، هناك شيء يجري يجعل كل شيء مضطرباً، ويذهب في المسارات التي لا يرغبها. شعر بوجع خفيف في صدره وهو يصعد الدرج. وقف قليلاً ليستريح. خف الوجع بعض الشيء، تابع صعوده الدرج الى بيته. عندما دخل البيت وجد نفسه منهكاً، تمدد على الأريكة في الصالة، شعر نفسه أفضل قليلاً. عندما سمعت هناء صوت خطواته، خرجت من غرفتها، سألته:

«تغديت؟». قال سعيد: «لأ». قالت: «احطلك أكل؟». قال: «لأ، ما إلي نفس، بعدين». قالت: «اتصل مفيد من أمريكا، بسلم عليك وبقلك كل عام وانت بخير، قال برجع بيتصل». أدارت ظهرها وعادت إلى غرفتها. «ياه، مفيد وين انت؟!» قال، كان سعيداً بخبر اتصال مفيد، إذا كان يحتاج إلى شخص في هذه الأيام، فهو لا يحتاج سوى إلى مفيد. فمنذ تعارفهما، ورغم جدلهما وخلافتهما على كل القضايا تقريباً، كان مفيد هو الشخص الأكثر تفهماً لسعيد شخصياً، كانا يشبهان بعضهما في الروح، ولكنهما يختلفان على كل شيء آخر ويختلفان شكلاً اختلافاً كبيراً. فسعيد طويل وله بنية قوية تميل إلى الضخامة، حنطي اللون، عيناه واسعتان. بينما مفيد قصير ونحيف، أبيض اللون وشعره الخفيف يميل إلى الشقرة، عيناه خضراوان صغيرتان، وملامحه دقيقة. كانا نقيضين في كل شيء، ولكن في لحظاتهما الحميمية، كانا يتفهمان بعضهما تماماً. لقد كان مفيد من أكثر الأشخاص الذين أثروا على سعيد بعد خروجه من الأسر، كان أكبر من سعيد بحوالي خمس سنوات، ولكنهما يظهران بالعمر نفسه، لأن مفيد كان دائماً يبدو أصغر من عمره بكثير. كان رجلاً ذكياً، ويطرح أفكاراً مفاجئة وغير عادية، كان يستفز الآخرين بطريقة غريبة، ولكن لن يغادرهم قبل أن يسترضيهم، كان يشعر بالضيق من المكان الذي يعمل به، لأنه لا يستطيع أن يعبّر عن أفكاره بالحرية التي يرغبها. كان مفيد فلسطينياً ولد في بيروت، وحصل أهله على الجنسية اللبنانية، مثل الكثير من الفلسطينيين، ولكن والده قرر الهجرة إلى أميركا في منتصف الستينات، عندما كان مفيد وهو أكبر أبنائه قد بلغ الثامنة من عمره. لقد تقدم عمه الذي هاجر إلى أميركا قبل عام ١٩٤٨ طلب لمّ شمل لعائلة أخيه قبل سنوات، وجاءت بالموافقة، لقد اعتبرها والده فرصة لا تعوض، فقرر الهجرة إلى أميركا مع زوجته وأولاده الثلاثة، أكبرهم مفيد، وأصغرهم يبلغ من العمر خمس سنوات. هناك أكمل مفيد دراسته بنجاح، واستحق الدخول إلى جامعة شيكاغو لكلية الطب بمنحة دراسية ودون حاجة لأن يدفع والده رسوم جامعته. تعرف في الجامعة على الأوساط اليسارية الأميركية، ولكنه شعر أن الكلام لا يلبي جموحه إلى التغيرات الدراماتيكية التي يتصورها. قرر أن يذهب إلى لبنان لينتمي إلى فصيل فلسطيني، فقد اعتبر أن الفعل هناك، والحلم هناك، والوطن هناك، والثورة هناك،

وهناك يجب أن يكون. سأل نفسه ما الذي يفعله هنا في أميركا؟ فقرر ترك دراسته وأهله في أميركا ليلتحق بحركة المقاومة في العام ١٩٧٩، وكان عمره اثنين وعشرين عاماً، وفي الفصيل ذاته الذي انتمى إليه سعيد. عندما وصل مفيد إلى بيروت، كانت تغلي بكل الأفكار، وكانت تغلي بالجدل الفلسطيني ـ الفلسطيني، حول الدولة الفلسطينية، وكانت اتفاقات كامب ديفيد الموقعة بين مصر وإسرائيل، قد خففت من حدة أي نقاش فلسطيني ـ فلسطيني، وكان البحث العربي عن شكل لمواجهة ما أقدمت عليه مصر، فكانت التحضيرات للإعلان عن جبهة الصمود والتصدي مما استدعى مصالحات فلسطينية بين حركة فتح ومن معها وبين جبهة الرفض الفلسطينية. في هذه الأجواء وصل مفيد إلى بيروت. وسيقول عن الأيام الأولى لوصوله لسعيد: «يا زلمة دخت، وما عدت عارف شي، كل شي بيتغير بسرعة، قضيت بعض الوقت حتى قدرت أفهم شو عم بيصير، من وقتها اكتشفت إنو الساحة الفلسطينية مشربكة مثل كبكوبة الصوف الفلتانة ما بتعرف أولها من آخرها».
قضى مفيد عدة أشهر متنقلاً بين عمل وآخر، حتى استقر أخيراً في المجلة الناطقة باسم فصيله. ولم يمضِ وقت طويل حتى استقر في عمله وأعجبه، وأصبح بعد سنة تقريباً يشغل منصب مدير تحريرها. كان يشعر بالضيق من منصبه، لم يكن يرغب في أن يكون مقيداً، وهناك كان في المكان الأكثر تقييداً، ولأنه يعمل في واجهة الحزب الإعلامية، فعليه أن يقول ما يريده الفصيل، وأن يعبر عنه أفضل تعبير، وأن يحتفظ بقناعاته الشخصية لنفسه، فالحزب لا يحتمل تعدد وجهات النظر، لذلك كان عليه أن يلتزم بوجهة النظر المركزية لفصيله. وهذا جعله قريباً من القيادة الأولى التي تملي عليه ما يجب أن يكتبه. كان مفيد يضيق بعمله ويضيق بسذاجة ما يطلب منه، ولكنه يؤديه على أحسن وجه. طلب عشرات المرات نقله من هذا الموقع ولكن القيادة كانت تشدّد على أن يبقى في مكانه، فهو المكان الأكثر مناسبة له، و«هل أحد يعرف ما يناسبه شخصياّ أكثر من القيادة؟!» كان مفيد يقول متندراً في أوساط ضيقة. لم تطل إقامته في بيروت، فقد اجتاحت إسرائيل لبنان بحرب اقتلاعية للفصائل الفلسطينية وصولاً إلى حصار بيروت في العام ١٩٨٢، وكان نهاية الحرب بأن خرجت الفصائل الفلسطينية من بيروت. ونقل الفصيل الذي يعمل فيه مفيد مركز إعلامه إلى دمشق. هناك تعرف سعيد على

مفيد الذي كان يعرفه من خلال كتاباته، ولكنه في المجلة تعرف عليه شخصياً. لقد اتصل مفيد به بعد خروجه من الأسر، وقال له: «المجلة تريد أن تجري معك لقاء حول تجربة الأسر». قال سعيد: «ما عندي مانع، ومين بدو يعمل اللقاء معي». أجابه مفيد: «أنا». اندهش سعيد مما قاله مفيد، فقد اعتبر مكانة مفيد المهنية والتنظيمية أكبر من أن يجري معه لقاء صحفياً. وأضاف مفيد: «بتحب آجي أنا لعندك. أو بتحب تمر على المجلة انت». خجل سعيد أن يقول لرجل وقور أن يأتي إليه من أجل مقابلة، قال: «لا.. لا... أنا باجي ولو يا رفيق». عندما ذهب سعيد إلى المجلة، كان قد رسم صورة لمفيد على الشكل التالي، رجل وقور في الخمسين أو الستين من عمره، يملأ شعره الشيب أو أصلع، له سمات المثقفين، يرخي ذقنه ويحمل غليوناً ويشرب قهوة بلا سكر، لا شك بأنه شخص مهيب. وعندما قادوه في المجلة إلى غرفة مفيد، دق الباب ودخل، ليجد شاباً أنيقاً حليق الذقن في منتصف العشرينات من عمره في الغرفة يجلس وراء مكتب عليـــه

عشرات الأوراق وبعض الكتب. بحث سعيد في الغرفة لعله يجد شخصاً آخر، ولكنه لم يجد أحداً. قال سعيد: «أنا آسف، أنا سعيد، عندي موعد مع الرفيق مفيد، هو مو موجود؟». ضحك الشاب من كل قلبه، وقال: «أنا الرفيق مفيد، شو مو معبي عينك، ولا فكرتني واحد ختيار». صدم سعيد بما يقوله مفيد، كان مفيد يعرف أن أكثر من يقرأون له ولا يعرفونه شخصياً يعتقدون أنه رجل هرم. حاول سعيد الاعتذار ولكن مفيد قال: «ما في داعي للاعتذار، أنا تعودت..». هكذا تعرَّف سعيد على مفيد، يذكر ذلك التعارف وكأنه جرى منذ قليل، مفيد المبتسم يجلس أمام سعيد المرتبك من سوء تقديره. يسأله مفيد: «شو تشرب قبل ما نبلش؟». ابتسم سعيد الممدد على الأريكة كأنه يسمع صوت مفيد يعيد عليه تلك الكلمات، ليبدأوا علاقة من جديد.

٢٧

يتذكر سعيد كيف كان يتعامل مع مفيد بنوع من التناقض، يحب أن يستمع لوجهة نظره التي تدهشه، لكي يعارضها بشدة، لكنه في حقيقة الأمر كان يتأثر جداً بوجهات نظر مفيد، وشيئاً فشيئاً تتسرب وجهات نظر مفيد إلى أحاديث سعيد، وبعد أيام عدة يعود ليتكلم مثلما كان يتكلم مفيد. لم يقر سعيد يوماً أنه يتأثر بمفيد إلى هذا الحد، ولم يحاول مفيد أن يشعره، بأنه يعرف مقدار تأثيره عليه. كان صريحاً مع سعيد، ويقول كل الأفكار التي تخطر له، حتى انتقاداته إلى الأمين العام، ويعرف مفيد أن سعيداً، لن يحولها إلى نميمة عند القيادة. بعد اللقاء الأول أخذت العلاقة بينهما تتوطد، وكلما اجتمعا في مكان بمحض الصدفة، كانا يتقربان من بعضهما بعضاً، بعد فترة وجيزة أصبحا صديقين. كان مفيد منذ قدومه إلى دمشق يسكن في حي المزة، وهو واحد من أرقى الأحياء في المدينة، وكان عمله في وسط البلد، وكانت علاقته بالمخيم علاقة متواضعة تقتصر على بعض الندوات وبعض الاجتماعات. كانت أغلب علاقاته بحكم طبيعة عمله مع المثقفين الذين يمارسون العمل الكتابي، وجزء منهم يتعاونون مع المجلة التي يدير تحريرها. كان هذا حال جميع القيادات الفلسطينية من مرتبة مفيد فما فوق، والذين جاؤوا من لبنان إلى سوريا، لم يسكن أياً منهم في المخيمات، كانت هذه الملاحظة المسكوت عنها من الجميع. لم يكن مفيد يحتقر المخيم، ولم يكن يملك الوقت بحكم عمله المزدحم والارتباطات الكثيرة وبحكم قلة علاقته مع العاملين في فصيله في المخيم، على التواجد بشكل أكبر هناك. كان يرغب أحياناً أن يقوم ببعض التحقيقات والمقابلات والمعايشة مع المخيم، ليكتب شيئاً ما عن آليات تشكل الهوية الوطنية الفلسطينية في مخيمات الشتات، كان موضوعاً مغرياً بالنسبة له، ولكنه لم ينجزه في يوم من الأيام، كتب

بعض الملاحظات النظرية، وجمع بعض المقابلات المنشورة، وكان في كل مرة يقرر الشروع في بحثه كان هناك ما يعطله، فيصرف النظر عنه وينساه، ويعود ليتذكره، ويعود لينساه من جديد. وفرت العلاقة مع سعيد مدخلاً لعالم آخر لمفيد، وبالمقابل، وفرت العلاقة مع مفيد مدخلاً لعالم مختلف لسعيد. ليس تلصصاً، بل معرفة طريقة عيش مختلفة، لقد كانت علاقتهما مفتوحة، عرف سعيد من مفيد عن الحياة في أميركا الكثير من خلال ما يقوله مفيد عن تجربته هناك. وعرف مفيد الكثير عن المخيم من خلال ما قاله سعيد عن الحياة هناك. في أحد المرات قال مفيد: «بحسدك على عيشة المخيم، فيها شيء ساحر». ضحك سعيد وقال: «شو بتتمسخر علينا، إذا كان هيك، هاي المخيم قدامك روح عيش فيه». قال مفيد: «ما فهمت عليّ. ما بنفع أنا أروح اليوم وأعيش بالمخيم، أنا تكوَّنت وخلصت. أنا قصدت العيش بالمخيم أصلاً. بشر صنعوا حياتهم من لا شيء، أنا معجب بالتجربة جداً، وأتمنى فعلاً أن أكون قد عشتها من الداخل، لأفهم كيف أستطاع أهل المخيمات أن يحملوا وطنهم معهم ويعيدوا بناءه في المخيمات من جديد، من لا شيء». كان مفيد يتكلم في غاية الجدية. قال سعيد: «هذا كلام مثقفين وسياح، المخيم هو المخيم عنوان للبؤس، ورح يبقى عنوان للبؤس، ما فيه شي لا ساحر، ولا خارق للعادة، جماعات من البشر وجدت نفسها في العراء، ولأن عليهم أن يعيشوا حياتهم، عاشوها كما توفرت لهم. انت ما منتبه على حالك شو بتحكي، بتحكي كمشاهد من حقه يتلصص على حياة الفلسطينيين في المخيمات، سحر المخيمات يا رفيق مفيد، هو أن تكون حياتك منتهكة من الجميع ومعروضة أمام كل من يريد أن يشاهدها كفلم مأساوي هندي». قال كلماته الأخيرة بسخرية مُرَّة. عرف مفيد أن ما قاله عن سحر المخيم قد مسَّ وتراً حساساً عند سعيد. وتر لم يكن منتبهاً له، كلمات سعيد أفهمته أن تجربة المخيم، تجربة معقدة ومتداخلة فيها من السحر والصبر والألم والمعاناة والمأساة والرعب والإرادة والخصوصية وحتى من الجماليات الكثير الكثير، ولكنها كلها متداخلة لا يمكن فصلها عن بعضها أبداً، مجدولة كضفيرة غير قابلة للفك. حاول مفيد أن يهدئ من التوتر الذي شاهده على وجه سعيد. وقال بشيء من التحسر: «ما في حياة سهلة. كل تجربة ولها ثمن، وإحنا دفعنا ثمن كبير لشيء ما إلنا إيد فيه». انتفض سعيد، وقال: «إحنا دفعنا

مو إنتو. إنتو شو صار عليكو، عشتو مرفهين هناك بأمريكا، وهون في الشام، إنتو شو دفعتوا ثمن». كان اتهاماً شخصياً لمفيد، وعند هذا الاتهام، ورغم التقدير لوضع سعيد، غضب مفيد، وقال بحدة: «اسمع سعيد، كوني ما عشت تجربة المخيم، هذا لا يعني أني متهم. لقد شاءت الأقدار ما أمر بهاي التجربة، كان لازم أمر بمحرقة المخيم، حتى تعترف فيني فلسطيني يا سعيد. مو أنا اللي اخترع المخيم، وكونك ضحية هذا لا يعطيك الحق باتهام الآخرين عمال على بطال. وضع الضحية ليس وضع امتياز، وإلا أصبحنا مثل الإسرائيليين، كوننا ضحايا يحق لنا ذبح الآخرين». كان يقول كلماته وينظر إلى سعيد بعينين ثابتتين. عندما سمع سعيد كلمات مفيد، أدرك أنه دخل نقاشاً خاسراً، ولكنه لم يكن يستطيع أن يتراجع وقال: «مو كل الفلسطينية فلسطينية، الفلسطينية أشكال ألوان، الناس اللي فوق والناس اللي تحت». قرأ مفيد في كلمات سعيد عدم الرغبة في استمرار النقاش، فقال: «إذا كان هذا تحليلاً طبقياً أوافق عليه ككاتب، أما إذا كان هذا تحليل دم، فإنني كمشروع طبيب سابق، لا أوافق عليه». وضحك، وضحك معه سعيد، أُعجب سعيد بالأسلوب الذي كسر فيه مفيد حدة النقاش بينهما، وأدرك سعيد أنه بذلك كان يجنبه نقاشاً خاسراً ومحرجاً، انتصر فيه مفيد دون أن يعلن انتصاره. لقد شعر سعيد نفسه يدير حواراً يعبر فيه عن عنصرية مقلوبة، خجل من اتهامه لمفيد، ولا يعرف ما الذي جعله يتهمه، ومفيد بالذات. لقد كانت ثقة مفيد بنفسه تعجب سعيد، ثقة طبيعية، غير مبالغ فيها. وعندما يخطئ كان يعترف بخطئه، ويعلن عنه ويتندر عليه ويعتذر. كان سعيد معجباً بالجرأة التي يتحلى بها الرجل، كان منسجماً تماماً مع نفسه، يفعل ما يريد بقدر ما يستطيع، ينتزع حقه بالاختلاف. كان سعيد يفسر هذا بالتربية والحياة الأميركية التي عاشها الرجل، ولم يكن لذلك أي علاقة بالحقيقة، لقد كان مفيد رجلاً حراً بطبعه، واتبع ما يمليه عليه هذا الطبع. يتذكر سعيد تعليقات ووجهات نظر مفيد في فترة انهيار الدول الاشتراكية. قال مرة لسعيد: «أقولك سر ما تقوله لحدا». قال سعيد: «قول». قال مفيد: «عندك قيادات في الحزب، أخذت شهادات الدكتوراة من مدارس حزبية في الدول الاشتراكية، أنهارت مو بس أحزابها ودولها كمان، وبعدهن قيادات علينا ودكاتره، العمى شايف شو هالمصيبة». دهش سعيد من الملاحظة

الساخرة. في مرة أخرى قال لسعيد: «العمى شو طلعنا مجانين، قرينا كتب كثير ما إلها فايدة، بتعرف والله إذا فتحت راسنا بتلاقي تبن». «ظلينا نحكي بدنا نتحول إلى حزب ماركسي لينيني، ولما قربنا نصير، وقعت الماركسية وانهارت، وما بنينا شي، لشو نبني أداة الثورة، ما هي الدول الاشتراكية، وقعت أنظمتها من دون حاجة لأداة تغيير مثل ما هلكنا حالنا، وقعت لحالها مثل بيت الورق». كانت تعليقات مفيد الساخرة تخفي ألماً كبيراً على حلمه بالعدالة التي اعتقد أن ماركسية غير سوفيتية يمكن أن تحققه، ولكنه اقتنع أن كل الماركسيات قد انهارت، سوفيتية وغير سوفيتية. وكانت الطلقة الأخيرة في حياته السياسية توقيع اتفاق أوسلو. عندها قرر العودة النهائية إلى أميركا، حاولت قيادة فصيله أن تقنعه بالبقاء، ولكن دون جدوى. حاول سعيد أن يناقشه بقراره بالعودة إلى أميركا، إلا أنه لم يكن قراراً قابلاً للنقاش. قال مفيد لسعيد كلمات ما زالت ترن بأذنه: «خسرت حلمي بالعدالة، وخسرت حلمي بفلسطين، خليني أرجع على الحلم الأميركي». قال كلماته الأخيرة بسخرية. نظر إلى سعيد بمرارة، وقال: «ما بقي لي شي هون، على الأقل أنا عندي مكان أرجع عليه، الله يكون بعون اللي ما اله مكان يرجع له». يوم السفر لم يتبادلا سوى كلمات الوداع، جاء كثيرون ليودعوا مفيداً، وكانوا كأنهم يأتون للتعزية فيه لا لوداعه، لقد كانت خسارة سعيد بسفر مفيد كبيرة جداً، لقد شعر أنه يفقد أباه الروحي، عندما ركب مفيد سيارته إلى المطار ورفض أن يرافقه أي أحد إلى هناك، نظر إلى سعيد ولوح بيده، قال سعيد لنفسه والدموع في عينيه: «إنه زمن الخسارات». تسيل دموع سعيد من جديد بعد أكثر من اثني عشر عاماً على سفر مفيد، وكأن مفيد يلوح له بيده الآن مسافراً إلى أميركا.

٢٨

غطى سعيد وجهه بيديه عندما دخل ابنه الكبير رائد راكضاً، حتى لا يرى الدموع في عينيه، قال رائد لاهثاً: «شو بابا، قال أخوي بدك إياني؟». قال سعيد وهو يمسح دموعه التي لم يرها ابنه: «ما في شي حبيبي، بدي أعطيك عيديتك، نسيت أعطيك ياها الصبح، وأخوك فضحني». قال رائد وهو مستعجل: «خبي لي ياها، معي مصاري». خرج مسرعاً. ناداه سعيد: «رائد... رائد...». عاد الولد سريعاً قال: «نعم بابا». سعيد: «وين رايح». رائد: «فوق عند بيت عمي». سعيد: «إذا كان فوق روح معليش». خرج رائد مسرعاً لثوان، وعاد مسرعاً وهو يقول: «صحيح بابا، قال عمامي إذا ما بدكو تطلعو، بدهم يسهروا عندكو». تذكر سعيد أنه لم يقم بزيارة بقية أخواته البنات اللواتي اعتاد على زيارتهن أول أيام العيد، شعر أنه متعب، وأن التوتر بينه وبين هناء لم يخف هذه المرة وما زال في أوجه رغم أن أول أيام العيد يكاد ينقضي، ودخل الليل منذ ساعات. كان رائد يقفز في مكانه منتظراً جواب أبيه، نفد صبره قال لأبيه: «يلا بابا، شو أقول لهم». نظر سعيد إلى ابنه المتقافز وقال: «والله يا قرد، هاي السرعة رح تجيب آخرتك... خلص قلهم ينزلوا». خرج رائد مسرعاً، وكانت خطواته السريعة مسموعة لسعيد على درج البناء. هز رأسه مستنكراً سرعة ابنه، ابتسم ونهض عن الأريكة وذهب إلى الغرفة التي فيها هناء. نقر بإصبعه على الباب قبل أن يدخل، وعندما دخل كانت هناء متحفزة قالت له بلغة استفزازية: «ما في داعي تدق، هو انت فايت على بيت غريب!؟». شعر سعيد بنفسه يغلي، أمسك أعصابه، وقال: «مروان ومحمد نازلين يسهرو عنا». قالت هناء «أهلاً وسهلاً، البيت بيتك، ليش بتقلي». قال سعيد: «من باب العلم بالشيء». أدار ظهره وخرج من الغرفة مستفزاً. عاد إلى مكانه السابق على الأريكة نظر إلى الساعة المعلقة على

الجدار قبالته، إنها العاشرة إلا دقيقتين. أدار التلفزيون على قناة الجزيرة ليرى البرنامج الإخباري «حصاد اليوم»، أعلنت الشارة عن بدء البرنامج الذي كان يقدمه جمال الريان وخديجة بن قنة توالت الأخبار التي يتداورها المذيعان: «سقوط ٧٥ قتيلاً عراقياً، نصفهم ضحايا غارات جوية لقوات الاحتلال ونصفهم الآخر في تفجيرات استهدفت مدنيين جنوبي بغداد... مقتل أربعة جنود أميركيين بسقوط مروحية في غربي العراق... دعت وزارة الدفاع العراقية صغار الضباط السابقين من رتبة رائد وما دون إلى الالتحاق بالجيش الجديد...» «في باريس أطلق شبان غاضبون الرصاص على الشرطة الفرنسية، وأضرموا النار في عشرات المركبات في الليلة السابعة لأعمال العنف التي تشهدها فرنسا...» «التهدئة في الأراضي الفلسطينية في مهب الريح بعد تهديد «حركة المقاومة الإسلامية» (حماس) بعدم تمديد الهدنة التي تنتهي نهاية العام الحالي، وذلك تزامناً مع التصعيد الإسرائيلي المستمر والذي أدى إلى استشهاد ناشط من «كتائب شهداء الأقصى» المنبثقة عن حركة «فتح» بعد ساعات قليلة على مقتل جندي إسرائيلي من «القوات الخاصة» خلال غارة في الضفة الغربية...» وعندما دق أخوته الباب كان يقرأ خبر الشريط أسفل شاشة التلفزيون الذي يقول «الرئيس السوري بشار الأسد يصدر عفواً عن ١٩٠ سجيناً سياسياً، بمناسبة عيد الفطر المبارك، وتتزامن هذه الخطوة مع تكثيف الضغوط الدولية على دمشق بصدور القرار ١٦٣٦ عن مجلس الأمن الدولي...» أغلق سعيد التلفزيون مستقبلاً أخويه وزوجتيهما، مبادرينه القول: «كل عام وأنتم بخير»، كان الجميع يقول له ذلك. لم تتأخر هناء في الخروج من غرفتها لاستقبال ضيوفها. بادرتهم بالتهنئة بدورها: «كل عام وأنتم بخير». وعندما سألتها عفاف زوجة مروان: «كيف حالك؟». أجابت بلهجة ولغة مشحونة وهي تنظر إلى سعيد: «من الله بخير، لكن من عبيدو لأ». كان هذا إعلاناً عن استمرار التوتر بينها وبين سعيد. كانت سابقاً تخفي توترها، في كل عيد كان الجميع يعرف أن هناك مشكلة بينهما، ولكن عندما يدخلون بيتهم، كانوا يشعرون أنه لا توجد أي مشكلة. كانت هناء حريصة على صورتها وصورة سعيد وصورة علاقتهما أمام الآخرين خاصة أمام أخوته. ولكن هذه المرة تتصرف على عكس عادتها. عرف الجميع أن التوتر ما زال قائماً وأن

المشكلة لم تنتهِ، لم يكونوا مطلعين على خلافات سعيد مع هناء، ولم يكن أحدٌ منهما يتحدث عن مشكلاتهما المشتركة. رغم أن المشكلة المعروفة لدى الجميع في مثل هذا اليوم، هي زيارة القبر. ولكن هذه المشكلة باتت تحمل معها مشاكل أخرى. في البداية كادت تكون المشكلة الوحيدة، ولكنها الآن واحدة من مشاكل متعددة. غمز مروان ومحمد زوجتيهما، اللتين فهمتا المقصود. قامت عفاف وفاتن زوجة محمد، أمسكتا بيدي هناء، وقالت عفاف: «شو ما بدك ضيفينا، صايرة شامية بخيلة». وقادتاها إلى المطبخ تجنباً للصدام بينهما. وهناك سألت فاتن بحس الفضول الأنثوي: «شو في هناء؟». وكانت عفاف تنصت متمنية أن تقول هناء ما عندها، بفضول أكبر من فضول فاتن. ولكن هناء قالت: «ما في شي». وانهمكت بتحضير العصير. قالت عفاف: «والله أنا مستغربة، شو صاير، طول عمري أنا ومروان معجبين بعلاقتك أنت وسعيد، شو صاير بيناتكو». ابتسمت هناء ابتسامة سخرية وقالت: «لا تتعودي تحسدي حدا على حياة ما عارفتها منيح، لأنو هناك كثيرين بنحسدهم على صورة حياتهم اللي منشوفها. بس هما بكونوا عايشين حياة أزفت من الزفت». كان هذا إعلاناً غير مباشر منها أن حياتها مع سعيد أزفت من الزفت، وقد قرأت عفاف وفاتن التلميح جيداً، نظرتا إلى بعضهما مستغربتين ما تقوله هناء. كررت فاتن سؤال عفاف، وازداد فضولهما. كررت هناء: «ما في شي. أحياناً الواحد بقرف حياته». سألت عفاف باستغراب: «إنت هناء، قرفانة حالك؟!». نظرت هناء إلى عفاف بعينين ثابتتين وقالت: «نعم يا ستي، أنا قرفانة من حالي ومن البيت ومن الدنيا ومن اللولاد ومن المخيم ومن البلد..». وضعت أكواب العصير على الصينية وهمت بحملها، قالت لها فاتن: «عنك ما بيصير».

بعد ذهاب زوجتيهما مع هناء إلى المطبخ، لم يعرف مروان ومحمد ما الذي يمكن أن يقولانه لسعيد في مثل هكذا وضع، لقد كان دائماً هو الذي يقول لهما ما يفعلان عندما يصادفان المشاكل، وكان يقف معهما دائماً. اليوم يشعران أن أخاهما ووالدهما عملياً يتألم ويمر في أزمة، ولا يعرفان كيف يساعدانه، أو ما يقولان له. كانا مرتبكين، خافا أن يقولا أي نصائح، يعتبرها سعيد تصغيراً له، ويزيدان من الضيق الذي هو فيه. تحدثا كلاماً عاماً، كان سعيد يجيب بكلمات مقتضبة، ولكنه لم يكن معهما. أدركا ذلك منذ دخلا بيته، كان معهما بجسده،

وكان يرد عليهما بآلية كالرجل المخدر، ولكن روحه المتعبة لم تكن معهما، كانت في مكان آخر، هو نفسه لا يعرف أين. لم يكن يفكر في شيء، كان الفراغ هو كل ما في رأسه. عندما عادت هناء وعفاف وفاتن إلى الصالة التي يجلس فيها الأخوة الثلاثة، حاول الجميع كسر الجمود والجفاف والتوتر الذي يسود بين هناء وسعيد دون جدوى. وباتوا بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة حائرين، هل يعودون إلى منازلهم، أم يبقون حتى لا يعودا إلى الصدام؟ عاد ولداهما رائد وعلي منذ ساعتين، وناما من تعب العيد. وبات الوقت متأخراً جداً فقد تجاوزت الساعة الثانية صباحاً، عندها قال مروان: «صار لازم نروح، ثقلنا عليكم كثير». ولم يكن إلى ذلك الحين قد تبدد أو انكسر جو التوتر بين سعيد وهناء. عندما أعلن مروان أنهم ذاهبون، انتبه سعيد إلى أنه سيبقى وحيداً خلال لحظات مع هناء. حاول أن يتمسك بهم، قال وهو يعرف أن هذا لن ينجح: «بكيّر، خليكو، شو وراكو، الدنيا عيد». قال مروان وهو يهز رأسه مستنكراً: «شو بكير يا أبو رائد الساعة تنتين ونص». لأول مرة شعر سعيد أنه لا يرغب أن يكون وحيداً مع هناء، ليس خوفاً من المواجهة التي يكرهها، ولكن هناك تعباً داخلياً مشحوناً ببعض الذنب والندم تجاه هناء هو ما كان يجعله لا يرغب في البقاء معها وحيداً لأول مرة في حياته. عندما خرج إخوته، سمع أصوات خطواتهم تبتعد، بعد قليل ساد الهدوء، شعر بقلبه يهوي داخله، شعر إحساساً بالارتجاف الداخلي يضرب صدره. الوقت يقترب من الصباح، شعر كل شيء يرقد في هدوء قاس. أغمض عينيه وأغلق الباب، عندما استدار إلى الخلف وفتح عينيه، كانت هناء تجلس على الأريكة قبالته تماماً، تنظر إليه نظرة غريبة ثابتة واتهامية، لم يشاهدها من قبل في عينيها.

٢٩

لم يستطع أن يُطيل النظر في عيون هناء، شعر بالضعف تجاهها، ضعف لم يشهده في نفسه من قبل. كان يحب تأمّل عيونها في كل الأوضاع، حتى عندما كانت تبكي، كان يحب بريق عيونها المغسول بالدموع، ولكن هذه العيون التي أمامه لا يملك القدرة على النظر إليها طويلاً. إنها عيون جديدة، عيون تفتح على هاوية، عيون لا يعرفها وتخيفه. لم يتصور سعيد يوماً أنه سيأتي يوم يمكن أن تخيفه عيون هناء. فهذه العيون الجميلة، للمرأة الجميلة، كانت دائماً ترسل حباً وتسامحاً حتى في فترات الشقاق الكبرى بينهما. غرق سعيد في تأمله، كيف تكون العيون مدخلاً فاضحاً إلى الروح التي تختبئ وراءها وتعكس ما بداخل البشر. ما زال واقفاً وظهره إلى الباب الخارجي بعد أن خرج إخوته، لا يعرف أين يذهب، هل يذهب للجلوس إلى جانب هناء، قبالتها؟ هل يذهب إلى غرفتهما متجنباً النظر إليها؟ كان حائراً لا يدري ما يفعل عندما خطى خطوته الأولى المتعثرة باتجاه لا شيء. هو لا يرغب في الصدام معها، لقد كان يومه طويلاً، شعره أطول من عمره. لم يكن في حياته يوماً أطول وأثقل من هذا اليوم الكريه. لم تكن هناء التي تنظر إليه بتعب السنين التي أرهقها فيها سعيد والمخيم ترغب في الصدام أيضاً، لقد كان تعبها الداخلي أقوى من قدرتها على إخراج الاحتقان في داخلها عبر الاصطدام بسعيد وإخراجه عبر الصراخ أو عبر تحطيم الأواني أو تحطيم أي شيء. كانت مرهقة ومتعبة إلى درجة الإنهاك، ليس من اليوم الطويل والمتعب الذي قضته، كانت مرهقة من تعب عمرها، مرهقة من كل شيء، حتى من نفسها. كانت تشعر أن هناك شيئاً ما يجب أن يحصل، لا يمكن أن تستمر حياتها بهذا الروتين، وبهذه البلادة. كان عليها أن تتخذ قراراً ما. كانت بحاجة إلى الراحة والسكون الداخلي ولا تعرف كيف تستطيع الوصول إليهما. لم

تكن في تلك اللحظة تشعر بالكراهية تجاه سعيد، كانت تشعر بالملل القاتل منه، بات سعيد بالنسبة لها شيئاً مملاً. شعرت أن قلبها ينغلق أمام هذا الشخص الذي شكل لسنوات طويلة كل شيء في حياتها، لقد بنت وهماً واليوم يسقط وهمها مفتتاً دون أن تحاول تجميعه، ودون أن ترغب بذلك، شعرت أن سعيداً أصبح في حياتها جزءاً من ماضٍ بعيد يكاد يسقط من الذاكرة، شخص جاء من الحلم والأمل وتحول إلى هباء. كانت تشعر بالسكينة والاستغراب من طريقة تفكيرها الباردة بسعيد، والذي لم تفكر به يوماً إلا وهي تشتعل ناراً، حتى إلى ما قبل دقائق معدودة. ما الذي جرى لها؟! لم تكن تعرف، كانت تنظر إلى سعيد وكأنه شخص غريب، لا يعنيها، تفكر بنفسها وكأنها خارج نفسها، وكأنها شخص غريب لا تعرفه. شعرت أن روحها خرجت من داخلها لتتأمل شخصين، خاضا تجربة طويلة معاً، كانت أقرب إلى المصارعة المستمرة، مصارعة أنهكتهما وباتا غير قادرين على الحراك. عندما خطى سعيد خطواته الأولى قرر أن يجلس قبالة هناء. رمى جسده المنهك على الأريكة المقابلة لها، نظر إليها، كانت نظرتها ما تزال تلك النظرة الثابتة التي أخافته. سأل نفسه: «شو اللي عبصير؟!». لم يكن عاجزاً عن الإجابة فقط، بل كان عاجزاً عن التفكير أيضاً. عاودته آلام الصدر التي شعر بها وهو يصعد درج بيته في المساء، كانت هذه المرة أشد إيلاماً من المرة السابقة. كابر على نفسه وتحمل الألم، حتى لا تفهم هناء أنه يختلق الذرائع والأعذار للتهرب منها، أو لتجنب مواجهتها. كان سعيد ينظر إلى وجه هناء المتعب، ولا يعرف ماذا يفعل، وهو لا يرغب في فعل أي شيء، ولم يعد يعرف إذا كان هناك أي شيء يمكن أن يُخرج علاقتهما من التوتر الذي دخلته، وحولتهما إلى شخصين متحفزين تجاه بعضهما، يعيشان في جو مشحون طوال الوقت، وقابل للانفجار في كل لحظة. بات الوضع الذي يعيشانه أقرب إلى الجحيم. لم يكن قادراً على كسره، ولم يكن يعرف كيف يكسره، كأنه عالق في عنق زجاجة، وضع لا يعرف كيف يخرج منه!! شعر أنه فقد جرأته دفعة واحدة وبات يخاف من كل شيء، وعلى كل شيء. كأن سعيداً الذي يعرفه في داخله لم يعد موجوداً، ومن يسكن جسده الآن سعيد آخر لا يعرفه، سعيد غريب عنه، جاء من عالم آخر واستوطن جسده دون إذنه. لطالما شعر نفسه غريباً بين الآخرين، وشعر نفسه غريباً عن

العالم كله، ولكنه الآن يشعر نفسه غريباً عن نفسه. كان كل من سعيد وهناء يغرق في عالمه الغريب، يتأملان حياتهما، ولكن كل واحد منهما يتأمل حياة مختلفة عن الحياة التي يتأملها الآخر، وكأنهما لم يعيشا حياة مشتركة لمدة خمسة عشر عاماً سبقتها معرفة دامت حوالي خمس سنوات. شعرت هناء بالإنهاك الشديد، كانا يجلسان قبالة بعضهما، وينظران إلى بعضهما، ولكنهما كانا في عالمين مختلفين، لم يتبادلا أية كلمة منذ غادر أخوة سعيد. كسرت هناء حاجز الصمت بينهما عندما قالت بصوت عميق ومتعب جملتها الغامضة: «صار لازم أروح». نهضت بتثاقل وببطء وهي تقول كلماتها، نظرت إلى سعيد مرة أخيرة وجرت نفسها إلى غرفة نومهما. لم يفهم سعيد معنى الجملة التي قالتها هناء، وماذا قصدت بها؟ هل هي تريد الذهاب إلى النوم؟ لو أرادت ذلك لقالت: «صار لازم أنام». أو لذهبت للنوم دون أن تقول شيئاً بسبب الوضع المتوتر بينهما. ولم يعرف إذا كانت قد اتخذت قرارها بمغادرة البيت بشكل نهائي، والانفصال عنه. حرك شفتيه كي يستوضح ما تقصد، لكنه تراجع قبل أن تخرج الكلمات من فمه. وكانت هناء في ذلك الوقت قد دخلت الغرفة. تمددت على السرير مديرة ظهرها للجانب الذي ينام فيه سعيد. بعد قليل، لحق بها سعيد، فكر أن يحضنها، ولكنه تراجع عن الفكرة... فكر مرة أخرى أن يستوضح ماذا قصدت بقولها: «صار لازم أروح»... فكر في أن يدير وجهها إلى جهته... فكر بالكثير من الأفكار، لكنه لم يفعل أي شيء مما فكر به. وضع رأسه على الوسادة لينام، أغمض عينيه، استعرض يومه المتعب منذ الصباح حتى تلك اللحظة، تأمل حياته كلها، وجدها مجرد تفاهة، وهي التي اعتقد أنها مهمة، وأنها ستغير وجه التاريخ، ولكنه يراها الآن كما يجب أن يراها، مجرد تفاهة، ما كان عليه أن يعيشها أصلاً. فتح عينيه من جديد، نظر إلى هناء التي تنام إلى جانبه على السرير وتدير ظهرها له، قال لنفسه: «وهي ما كان لازم تعيش معي هاي التفاهة». وعندما أدارت هناء وجهها إلى جهته بعد أن غرقت بالنوم من شدة تعبها، أدار هو وجهه إلى الجانب الآخر، حتى لا يواجه وجه هناء المتعب. أغمض عينيه من جديد، سمع قبره يناديه، وقال لنفسه: «يمكن يكون القبر ملّ بلا جثة». شم رائحة الموت القوية تعبق في أنفاسه، فتح عينيه، كانت رائحة الموت ما تزال قوية، عاد وأغمض عينيه من جديد، رائحة الموت

التصقت به، سأل نفسه: «هل تشم هنـاء رائحـة موتـي؟!». تـذكر جنازتـه التي لم يحضرها قبل ربع قرن. شعر أنه يسير إلى قبره بنعش خشبي، ولكنه هذه المرة بلا أعلام.

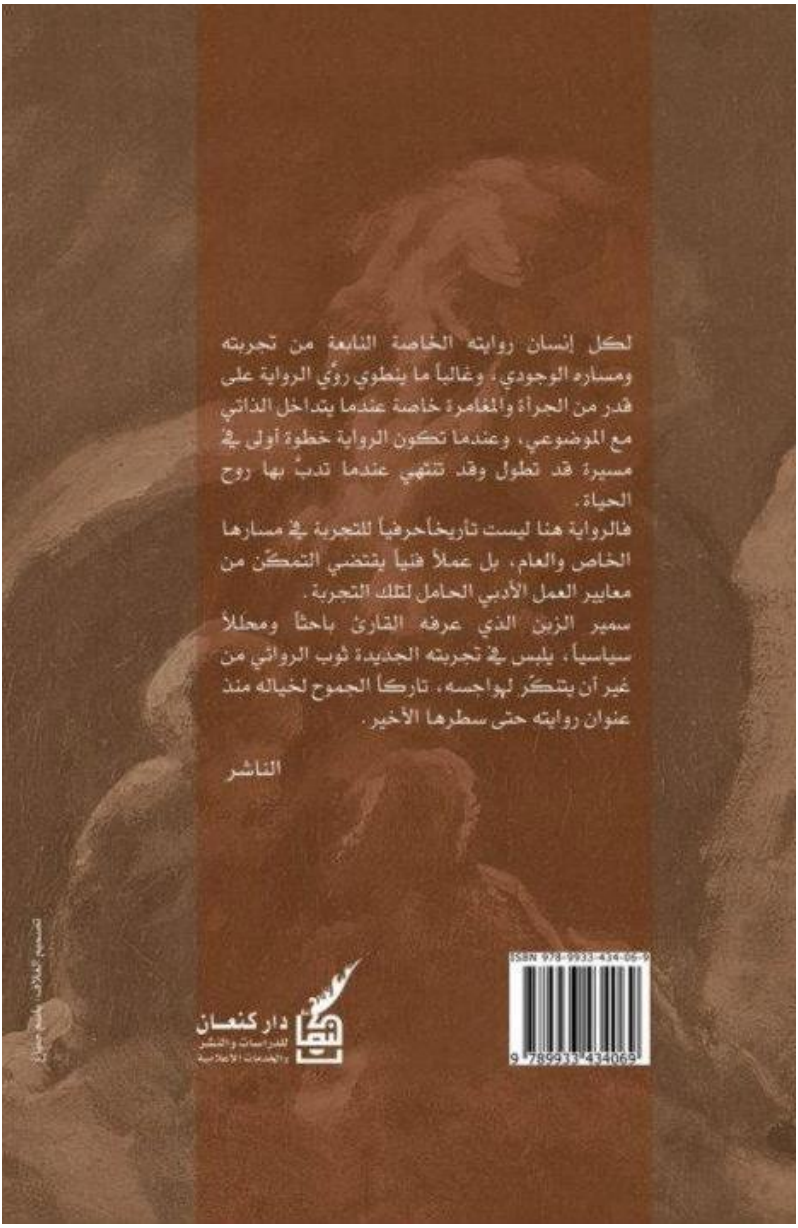

لكل إنسان روايته الخاصة النابعة من تجربته ومساره الوجودي، وغالباً ما ينطوي روّي الرواية على قدر من الجرأة والمغامرة خاصة عندما يتداخل الذاتي مع الموضوعي، وعندما تكون الرواية خطوة أولى في مسيرة قد تطول وقد تنتهي عندما تدبُّ بها روح الحياة.

فالرواية هنا ليست تاريخاًحرفياً للتجربة في مسارها الخاص والعام، بل عملاً فنياً يقتضي التمكّن من معايير العمل الأدبي الحامل لتلك التجربة.

سمير الزين الذي عرفه القارئ باحثاً ومحللاً سياسياً، يلبس في تجربته الجديدة ثوب الروائي من غير أن يتنكّر لهواجسه، تاركاً الجموح لخياله منذ عنوان روايته حتى سطرها الأخير.

الناشر

دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية

ISBN 978-9933-434-06-9